روايات الهلال

العجوزان

جار النبي الحلو

مدونة ابو عبدو

سلسلة شهرية لنشر القصص العربي والعالمي تصدر عن مؤسسة دار الهلال

رئيس مجلس الإدارة
غالي محمد

رئيس التحرير
سعد القرش

مدير التحرير
هالة زكي

المستشار الفني
محمود الشيخ

سكرتير التحرير
وجدان حامد

الإدارة
القاهرة: ١٦ شارع محمد
عز العرب بك (المبتديان سابقا)
ت: ٢٣٦٢٥٤٥٠ (٧خطوط).
المكاتبات ص.ب: ٦١ العتبة .
القاهرة . الرقم البريدي ١١٥١١
. تلغرافيا: المصور . القاهرة
ج.م.ع
تلكس:
Telex ٩٢٧٠٣ hilal u n
فاكس: FAX: ٣٦٢٥٤٦٩

البريد الإلكتروني: helalmag@yahoo.com
بريد الاشتراكات: subscription_dep@yahoo.com

ثمن النسخة
سوريا ١٢٥ ليرة -
لبنان ٨٠٠٠ ليرة -
السعودية ١٢ ريالا-
البحرين ١,٢ دينار-
قطر ١٢ ريالا -
الإمارات ١٢ درهما -
اليمن ٥٠٠ ريال -
فلسطين ٢دولار

تصميم الغلاف: محمود الشيخ

الاشتراكات
قيمة الإشتراك السنوي ١٦٠,٠٠جم داخل جمهورية مصر العربية تسدد مقدماً نقداً أو بحوالة بريدية غير حكومية- البلاد العربية ٤٠ دولاراً - أوربا وأسيا وأفريقيا ٤٥ دولاراً - أمريكا وكندا والهند ٥٠ دولاراً - باقي دول العالم ٧٥ دولاراً
القيمة تسدد مقدماً بشيك مصرفي لأمر مؤسسة دار الهلال ويرسل لإدارة الإشتراكات بخطاب مسجل كما يرجى عدم إرسال عملات نقدية بالبريد

الإصدار الأول/ يناير ١٩٤٩

طبع هذا العدد بأحبار باكين

الكتاب : العجوزان

المؤلف : جار النبي الحلو

التصنيف : رواية

الناشر : روايات الهلال - دار الهلال

فبراير ٢٠١٦م

رقم الإيداع : ٣٠٥٩ / ٢٠١٦

الترقيم الدولى : 978-977-07-1752-3

رواية

العجوزان

جار النبي الحلو

دار الهلال
٢٠١٦

أول مرة رأيت «فايز»

كنت على وشك إغلاق شيش البلكونة عندما رأيته، ببدلة زرقاء نظيفة، ومنديل أحمر يطل من الجيب يخطف النظر، كان يمشي في سعادة غامضة، يتحرك رأسه في اتجاهات عدة كأنه يبحث عن مستقبليه، كنت جاره في البلكونة المقابلة، في أصيل يوم من أبريل، دخل شارعنا ما[illegible]شفته بدهشة، خلفه دخلت بتؤدة سيارة نصف نقل بيضاء، السائق يتحرك بحرص لأن الشارع الضيق على ناصيته في اليمين عمود كهربائي وكشك سجائر ومشروبات باردة لصاحبته ياسمين، صاحبة أشهر ضحكة عالية، تجعلنا نتقلب على فراشنا، فيما ابنها "زيكو" بوجهه العكر يجلس متربصاً للعالم، لما انحرفت السيارة ناحية الكشك نهض زيكو وأمسك بظهر كرسيه متحفزاً، الصبي فوق السيارة النصف نقل يصرخ: حاااسب .. حاسب. ويميل بجذعه ويزعق: يمين.. شمال .. عجلة قدام. مع الصبي ثلاثة رجال أشداء ممددين بين كوم كبير من الكراسي والكنب والخشب، وثلاجة وبوتاجاز، وسجادة ملفوفة وكرتونة ضخمة انفرطت منها بعض الكتب.

من الطابق الرابع لاحظتُ ابتسامة العجوز، ذي البدلة الزرقاء وهو يشير إلى البيت وإلى طابقه الرابع أيضاً، سيصبح جاري

الذى يواجهنى تماماً، ربما نتبادل التحيات وبعض الحوارات، وإن كان يكبرنى كثيراً، هو على المعاش، وأنا شعرى مازال أسود وابنى البكر فى إعدادى طب، هو عجوز الهيئة رغم مرحه. قفز الرجال الثلاثة بمهارة، العجوز أخرج علبة السجائر وقدم للسائق والرجال وعندما مدّ الصبى يده ناوله السيجارة وأشعل لهم السجائر بولاعته الخاصة، وربت على كتف أكبرهم سناً. أشار لهم على الطابق الرابع، دفعنى الفضول لأن أمط رقبتى لأرى زوجته أو ابنته، كان وحيداً، ليس سوى الرجال الثلاثة الأشداء الذين يحملون قطع الأثاث ويغيبون فى البيت ثم يرجعون، يمسحون عرقهم فى أكمامهم، فكرت أن أنزل لمساعدته لكنه كان يبدو سعيداً أكثر مما ينبغى.

أخرج من جيب الجاكيت حافظته ومد يده بفلوس للصبى الذى طار إلى الكشك ورجع بخمس زجاجات مياه غازية، وأطلت ياسمين من الكشك برأسها تتفحص الساكن الجديد، فحياها بيده ملوحاً فانطلقت ضحكتها العالية، مشى مختالاً إليها ثم اتكأ على رف منفذ الكشك، وقف زيكو متحفزاً، ياسمين مسحت وجهها العرقان بطرف طرحتها بنفسجية اللون، ثم لوح لها العجوز بيده مثل شكرى سرحان. وقف على الرصيف يشرب من زجاجته وهو يتابع العمال باهتمام، لكنه انفعل وتحرك بعصبية وهم يحملون

الكتب، وكدت أسمع بعض توجيهاته، وعرفت اسم "فايز" عندما زعق أحدهم من فوق السيارة النصف نقل: يا فايز بيه .. الكتب فى عيوننا .. لا تخف.

رغم ضيق شارعنا إلا أنه يتمتع بالهدوء لأننا فى حى راقٍ، زمان لم يكن يدخل الحى سوى السيارات الملاكى أو الحناطير اللامعة أو التاكسى، الآن دخلها "التوك توك"، وتناهى إلىّ صوت زوجتى وهى تسأل: هل تريد فنجان القهوة فى البلكونة؟

لما أتت بالفنجان لم أجد العجوز ولا السيارة ولا زيكو، لكن الشقة بالطابق الرابع تضاء، فُتحت الشبابيك بالبلكونة، الرجال الثلاثة يعملون بهمة، يتحركون خلف الشبابيك، وصوت شاكوش مزعج يدق، أطلت أكثر من رأس، وأغلقت البلكونات بغضب، لكن صوت "الشونيور" غطى على كل الأصوات، وأصبح الضجيج عالياً خاصة أصوات الرجال التى تعلو لتسمع بعضها، وحين كف الشونيور انطلق صوت أم كلثوم من مسجل ليشيع فى السكون المفاجئ بهجة مدهشة:

"شمس الأصيل دهبّت خوص النخيل يا نيل

تحفة ومتصورة فى صفحتك يا جميل".

خرج العجوز فايز يبص من البلكونة، لم يجد سواى، رفع يده اليمنى ملوحاً بخفة، غالباً لم ير ردى، دخل رجل البلكونة حاملاً

كنبة خشبية مربعة، أشار له العجوز "هنا". حطها الرجل بإتقان، ثم وضع الرجل الثانى مثيلتها فى الركن المقابل، وعاد الأول بترابيزة صغيرة، وضعها فى الوسط، دخل الصبى متقافزاً ووضع مطفأة السجائر كيفما اتفق، انحنى العجوز وعدل من وضع المطفأة.

جلس العجوز على الكنبة ووضع ساقاً فوق أخرى وأشعل سيجارة.

حطت الظلمة، ويبدو أن الرجال أطفأوا المصابيح لأننى تبينت بصعوبة العجوز غاطساً فى الظلمة.

رفيق عمره

أنا رفيق عمره، التقينا فى المدرسة الثانوية، كنت ألعب الكرة وكان يحفظ قصائد صلاح عبد الصبور، كنت أحب السينما وعبد الحليم حافظ وهند رستم، وكان يفكر بجدية كيف نشأ هذا الكون ؟!

نرمى الكتب المدرسية، ونجلس فى جنينة بيتنا فوق الكراسى الجريد، يتابع النباتات فى دهشة، والمرحومة أختى كانت ترص أمامنا فوق الترابيزة البيض المسلوق، والجبن الأبيض، والرمان المفروط.

لم أتصور أبدا أننى سأنزل يوما للسوق فى سن الستين، لأشترى السمك والطماطم والجرجير، ولكن لرفيق عمرى العجوز الذى يعيش وحيداً بشقة فى الطابق الرابع بالحى الراقى فهذا هو الواجب المقدس كما اقترح هو تسمية "بهدلتي" فى السوق، ووصل الأمر إلى أن يتصل بى على الموبايل ليقول: هات معك علبة سجائر وساندويتشات فول وطعمية ولتر حاجة ساقعة واشحن لى على الطاير بعشرة جنيهات. فايز يطلب وأنا أنفذ بفرح، فأترك ما فى يدى سواء كتاب أو تقشير بصل أو حتى الاستغراق فى فيلم أجنبى بالتليفزيون، فى البداية تؤلمنى ركبتى، أطلع قليلاً وأنزل

درجات السلم وأنا أزرر قميصي وأتذكر أحمد رمزى فى أفلامه القديمة، أركب الميكروباص ثم أنزل السوق وأشترى المطلوب، وأشترى الجرائد.

يتمدد فى استرخاء فوق الكنبة الخشبية فى البلكونة ويقول اسمع يا سيدي: أوباما ومبارك والغلاء والكهرباء والإرهاب والعيشة الهباب. ويضيف: ولن أغمك بأخبار نادى الزمالك.

يرمى الجريدة ويقول: سأعمل لك نسكافيه من يدى. ويمشى على مهل وحذر خوفا من التعثر، قلت له مراراً: افعل مثلى .. أنا أمشى فى الشقة حافياً .. نحن فى سن لو تعثرنا نموت. يسخر قائلاً: أنا أحب النظافة .. أنت كنت تلعب الكرة الشراب فى الشارع حافيا وأنا أعوم فى حمام السباحة. يتركنى وهو يدندن لـ"عبد الحليم" وتقوللى بكره قلبك هيعطف". يرجع ويسال ما أخبار ابنتك؟ أرد: بخير. وأسكت. طلبت منها كثيراً ألا تتركنى وحدى، ولما تحسنت ظروفها ودخلت ابنتها الحضانة تطل علىّ فى الصباح والمساء بعد أن تتأكد من وجودى بالتليفون، تمر على مزودة ببعض المعلبات وتعطينى الحقن المسكنة لآلام العظام، تفتح باب الشقة وتلوح لى تصبح على خير .. اطمئن أنت معى على الموبايل.

طلبت منها أن تشترى لى شنطة خضار كبيرة بيدين متينتين، وقبل أن تندهش أضفت حتى أجمع فيها طلبات عمك فايز، وعندما

استيقظت صباحاً وجدت شنطة خضار جميلة لونها "بيج" بخطوط خضراء ويدين متينتين، تركتها ابنتى جنب التليفون الأرضى وتركت لى ورقة تحت الموبايل على "الكومودينو" مكتوب فيها: شنطة الخضار يا جميل .. وتحياتى لعمو فايز .. حضرت فى الصباح قبل الذهاب للشغل .. وجدتك نائما كأجمل إنسان فى العالم .. باي باي.

فى الشنطة "البيج" ألملم كل ما يحتاجه فايز، أحياناً أنسى وأشترى اللب الأسمر، يصيح فايز غاضباً: يا رفيق .. ستجننى .. أنا ليس لى أسنان لأقزقز اللب.

أرد باستغراب مبتسماً: لكننى أقزقز. يبتسم فى خجل طفل، يتركنى ويرجع وبين يديه علبة كرتون أنيقة بها جاتوه، وينحنى قائلاً: إلى رفيق عمرى .. مع تحياتى.

يتركنى ويجلس إلى الكمبيوتر، أنشغل فى كتاب أو مجلة، يظل يتراقص على كرسيه أمام الإنترنت، مع نسائه اللاتى يفضل صورهن، وهن يبعثن له بالتعليقات المراهقة ويدغدغن عواطفه، يمارس حبه القديم للشعر ويكتب كأنه شاعر ويردد ما كتبه لأسمع، ثم يرفع حاجبه الأيمن متسائلاً: مارأيك يا سيدى الكونت؟

يكون منتشياً لدرجة أنه لا يجوز إنسانيا إحباطه أتجه للمطبخ، أغسل الصحون، وأغمر الأرز بالماء فى الحلة الصغيرة، وأغسل الطماطم، ينادينى فى ابتهاج لأتفرج على البيروتية التى

يهيم بها، أقترب .. أرى .. أصفِّرُ بإعجاب، يقول لي: اتفرج يا بنى آدم هذه هى النساء. لف بالكرسى وترك البيروتية على الشاشة خلف ظهره لاحظت دمعة تتجمع فى عينه اليمنى، نفس العين التى حطت بها سحابةٌ بيضاء، قال باستغراب يشوبه الحزن: تزوجت ثلاث مرات .. لم تحافظ علىَّ واحدة .. ولم تكن فيهن واحدة جميلة مثل البيروتية. ثم صاح: هل رأيت العراقية؟

حين سخرتُ من حواراته الافتراضية، اتهمنى أننى لا أعيش فى الآن وأننى أعيش فى الماضى، ثم شدَّ كرسيه وواجهنى قائلاً: كنت أحاور شخصاً على الفيس بوك، وأسرَّ لى بأنه سينتحر .. تناقشت معه ليلة كاملة.. هل تعرف ما النتيجة؟ بعد أسبوع دخل صفحتى وأخبرنى أنه بعد حوارى معه اختار الحياة، ورفض فكرة الانتحار تماماً، وأنه الآن يتسول فى محطات المترو!.

ما أن ينحسر ضوء الشمس عن البلكونة حتى أنهض وأرتمى على الكنبة، أطلُّ على الشارع، ثم أتمدد. وكثيراً ما أغفو، أشعر به ينحنى علىَّ ويربت بحنو، أنتبه، يبتسم، يحلف بأنه سيغلق الكمبيوتر حالاً مؤكداً: سأحبس الجميلات فى الكمبيوتر وأجلس معك فى البلكونة.

يجلس، يحط الليل وتحط النسمات، يغطُّ فى نوم عميق ويشخر، أدرك كم صار صاحبى عجوزاً.

صياد المحبة

قلت لصديقى العجوز: ما رأيك فى رحلة صيد؟

انتفض فايز، وكشر، واندهش، ورفض، وضرب صدره بيده المرتعشة.

قال باستنكار: أنا!! أنا أصيد الوعول والجواميس البرية، ببندقيتى، وينفجر الدم، وأضع رجلى اليمنى فوق وعل ينفق .. أنا أقتل؟!

استوقفته قائلاً: صيد .. صيد سمك، سمك دون بنادق ولا دم، رحلة صيد سمك ليس إلا.

ابتسم وأشعل سيجارة ورفع الولاعة فى وجهى وأكد على أنه يرفض صيد الحيتان، ولا يفضل صيد القروش، ويهوى صيد السردين. ثم أخذ يكح، ناولته كوب ماء بسرعة، ثم قلت: سنصيد البلطى والقراميط يا عزيزى، فقط لا غير، هى نزهة بالأدق، عند النهر.

وافق على أن أتحمل أنا الإعداد.

كانت مشكلة عجوز مثلى أن يجهز الرحلة لعجوز مثله، صيد السمك يحتاج إلى نهر به سمك وهذا موجود، وأتوبيس ينقلنا من قلب المحلة لأطرافها وهذا موجود، ولكن البوص والشص والغمازة والعياشة والطعم من أين؟

دخلت المنشية القديمة تاركاً خلفى البنك والسوبر ماركت ودكاكين باعة الذهب، توغلت فى زقاق ضيق طويل سينحنى حتماً، ومرغماً أدلف لزقاق أكثر ضيقاً به مقهى صغير يسد الزقاق بالكراسى والزبائن والتربيزات النحاسية المدورة.

أنا الآن أمام المقهى تماماً "قهوة عبد ربه" مكتوبة بخط جميل أزرق على حائط مطلى بالجير الأبيض. الوصف بالضبط، قال لى الواصف بعد المقهى ستجد دكاناً عرضه متر وعمقه متران عليه يافطة سوداء مكتوب عليها "صياد المحبة .. لصاحبه نجيب" الدكان تنزل له بدرجتين أسمنتيتين لتصبح أمام رف خشب من الحائط للحائط عرضه خمسون سنتيمتراً، ويقطعه فى الربع الأخير فتحة يمرق منها شخص واحد نحيل، يغطى الفتحة ضلفة خشب بمفصلتين صغيرتين، فى الخلف يجلس عم نجيب شخصياً، فى حجم صبى صغير نحيل، رأسه أصلع وعلى الجانبين شعر أبيض لون القطن الطبى، ونظارته السميكة تكاد تقع من فوق أنفه الدقيق، حيث يجلس عم نجيب يقابله فى الخارج كرسى خشب بقاعدة خشبية مدورة وليس للكرسى مسند، أشار بدون أن ينظر لى أن أجلس، فجلست، جالت عيناى فى الدكان رأيت عدداً من البوص مائلة على الجدار، وعدداً من الرفوف الخالية تماماً فقدت لونها، ورفاً صغيراً فوقه كتاب ضخم قديم، وفوق الكتاب مصباح

جـاز نمرة ١٠، وعلى الجـدار صـورة من مـجلة قـديمة لنجـيب الريحـانى فى إطار فخم من الخشب كان مذهباً، و "الريحـاني" فى عينيه دموع محبوسة، وعلى وجهه ابتسامه مكسورة، خمنت أن الصورة من فيلم "غزل البنات" عم نجيب بص فى عينى"، انشغل بلف سيجارته، ثم سمعته يتمتم: نعم ؟!

تلعثمت بلا سبب . أزاح فنجان القهوة بيد مرتعشة، وقال:

– هذا الدكان كان له شنة ورنة، كنت زمان تصعد إليه بثلاث درجات، لأننى كنت حريصاً بالطبع على أن يكون الدكان مرتفعاً عن مياه المطر، والوحل، والمياه المدلوقة من جيراننا، وعفرتة العيال، وزقاقنا هذا لم تدخله المجارى إلا من عدة سنوات، ودخله الغاز، أيضا دخلته أسلاك التليفونات، وكلما حفروا .. ردموا، وكلما ردموا ارتفعت الأرض وهبط الدكان كما ترى يا سيدى .. نعم ؟!

هالنى بياض أسنانه، ولما أدركت أنها طقم أسنان، ابتسمت، فقال وهو يهز رأسه باستمتاع:

– أنا الوحيد فى المحلة الكبيرة الذى يبيع أدوات الصيد،عندما فشلت فى التعليم الأولى بمدرسة جلال الدين التى كانت فى التربيعة، رفضت كل محاولات أبى أن أشتغل فى البلدية، أو بواب، أو عامل شركة، كنت أريد أن أشتغل ما لم يشتغله أحد فى المحلة،

ويئست، وذهبت لأرمى نفسى فى النهر، وأنا الصغير لا أعرف أن الانتحار كفر، ولكن الجوع كافر أيضاً، وقفت أمام النهر الذى كان يقطع المحلة بالطول وخلفى سينما "الوطنية" والأفيش الكبير يتزين برسم ساذج لحسين صدقى وليلى مراد، وما أن رميت نفسى فى النهر حتى قفز خلفى ثلاثة شبان غطسوا وقبوا وأنقذونى وضربونى علقة ساخنة، جلست بجوار شجرة بونسيانا على الشط أرتعد برداً وخوفاً وألماً، ثم سرى الدفء فى بدنى، بعد قليل جاء رجل على رأسه قبعة ويلبس جاكيت كاكى فوق جلباب زيتى، ووضع مخلاة صغيرة وجلس بجوارى، وكان معه البوصة، طرح شصها فى النهر، وظل شارداً حتى ظننته نام، لحظتها فكرت من أين اشترى أدوات الصيد، إنه يدبرها من عدة أماكن، البوص من سوق الجمعة، والشص من دكان فى العباسى، والخيط من قاعة نول، والحقيبة القماش الصغيرة ربما صنعتها زوجته أو أخته، والطعم من أى غيط. فكرت طويلاً ولماذا لا أكون أنا كل هذا؟، ثم أخذت فى العطس، لما مات عمى وترك دكانه لزوجته، أجرّت الدكان من زوجة عمى التى ظلت تدعو لى بالخير والتوفيق حتى ماتت، كنت لا أفتح الدكان فى الصبح إلا بعد أن أشترى لها الفول بالطحينة والزيت الحار بخمس مليمات، وأرجع أفتح الدكان، حلمت أن يكون للدكان يافطة وعليها اسمى، احترت ماذا أسميه؟ لم أعثر

على اسم مناسب، فخرجت بصنارتى إلى كل أفرع النهر فى المحلة، حتى عثرت على اسمه: صياد المحبة.

وضعت كوب الشاى الذى طلبه لى من مقهى عبد ربه دون أن يسألنى. خلع نظارته ولمعها فى ذيل قميصه الأبيض الناصع، وسألنى للمرة العاشرة نعم ..؟! وأكمل بدون أن أجيب:

– امتلأ الدكان بكل أدوات الصيد حتى الطعم الدود المستخدم لخدا ع السمك، كنت أنزل الغيطان وأحفر وأستخرجه وأجمعه فى علبة صفيح كبيرة مملوءة بالطين الرطب، وكان عندى أكثر من صفيحة والدود يتوالد، لم ينقص الدكان سوى السمك .. ها ها ها . نعم؟!

أومأت برأسى أشكره على الشاى، رد:

– هنيئاً .. و ردموا النهر والترع والفروع، ارتفع الشارع وهبط الدكان، لم أعد أستطيع الاستما ع للراديو بسبب تليفزيون المقهى وصراخ البيوت المجاورة، والعيال المتكدسين فى الزقاق بصياحهم وألعابهم، زمان كان كبار الصيادين يقفون أمامى بالطوابير، لم أتزوج، أحببت عايدة وكنا نتقابل وندخل سينما الشركة الصيفى، وذهبنا فى عيد للمنصورة ، ولكن فى العيد الثانى تزوجت عايدة من موظف محترم يشتغل فى مدرسة "محب"، بعد موت أبى وأمى أخذتنى الحياة فى دوامتها، أفتح الدكان الصبح وأسهر طوال الليل أسمع الراديو، هذا كان رف الراديو، فى الليل أستمع لأغانى عبد الوهاب وأم كلثوم،

وأتابع برنامج "من الحياة" وأبكى لمآسى الناس، وقبل غلق باب الدكان أشد الكرسى الخشب وأقف فوقه لأطول الراديو وأشد الفيشة وأطبطب عليه وأمشى، والآن كما ترى ليس سوى بعض أعواد البوص، ولكنك ستجد عندى كل شىء، فقط أخبرنى إلى أى نهر ستذهب؟ ورحلة صيدك للتسلية، أم التفكير، أم لسد الجوع؟ قل لى.

ميكروباص

شددته من يده، فصعد صاحبى العجوز بصعوبة، وانحشر بجوارى فى الصف الثانى من كراسى الميكروباص. والصبى لا يكف عن النداء بصوت مسلوخ وبه لثغة فى عدد من الحروف. انتبهت للأغنية المبتذلة، وأزعجنى أكثر أن الصوت مرتفع بشكل فج، نفخت فى غيظ، فايز العجوز أشار بيده بمعني: لا تهتم.

صعدت المنتقبة وقالت: السلام عليكم. رد عليها كل الركاب تقريباً: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

جلست على الدكة الخشبية المزروعة بالطول بعد الباب وحتى الكراسى الأخيرة. وكانت بجوارى، لمست ركبتى ركبتها، ضممت ساقيّ للداخل.

السائق يشغل الـ٣ MP عالياً وتنطلق الأغانى الصارخة المبتذلة، ضاق صدرى. قلت للسائق "وطي الصوت" .. لم يرد عليّ، ولما كررت الطلب، زعق بدون أن ينظر لى، وقال بصوت حاسم: من لا يعجبه ينزل.

قلت زاعقاً: إنت قليل الأدب؟

أوقف الميكروباص، وشتمنى وهدد بضربى، تعالت الأصوات: خلاص يا أسطى.

واصل السير، ولم يتوقف الصوت العالى المزعج، ولم أتوقف عن إبداء رأى فى الذوق والأخلاق، حتى وصلنا لمحطتنا، ونزلنا بصعوبة، عدل فايز من وضع الجاكيت والقميص. ولم يدهشنى أننى كنت المعترض الوحيد وأن السائق لم ينزل ليضربنى.

غـرقـى

جلسنا وصمتنا، الشمس تضرب النهر بسخونة، بجانب شجرة الصـفصـاف وضـع حـقـيبـتـه القـمـاش الكبيـرة التى مـلأها بالجبن الأبيض والطماطم والجرجير، وضعت حقيبتى الجلدية بجوارها وقد ملأتها بالخبز البلدى، وعجورتين، وزجاجة ماء، وترمس شاى، وكوب من زجاج وكوب من خزف، وبرنيطة وشبشب.

نهض، وقف أمـام النهر وتطلع بدهشة وتوجس، وقد وضـع على رأسـه برنيطة من القماش المدورة مثل الصـيـادين ووضـع سـمـاعـتى الموبايل فى أذنيه والموبايل فى جيب القميص الأحمر الباهت.

اتفـقنا على أن هذا أفضل مكان لصـيد سـمك البلطى، نظفت المكان، وسويت القش جوار جذع الشجرة الضـخم، خلسة لاحظته يبتسم.

كنا هنا بالضبط ونحن فى الخامسة عشرة من عمرنا، ومعنا سندوتشـات الفـول والطـعـمـيـة والصـنارات، كنا نرغب فى يـوم جميل.

كنت لا أحب الصيد، وأحب صحبة الصحاب، أنا وفايز ومعنا خمسة آخرين فى نفس عمرنا، نصف نهار مضى ولم يصد أحدنا سمكة واحدة.

رجع فايز يظلع، وقف أمامى قائلاً:

كنا هنا .. أتتذكر ؟ .. منذ أكثر من خمسين سنة،هنا جلسنا، كنت أخاف على بنطلونى الأسود من التراب، فى الحقيقة أخاف من أمى، كنت مصابا بالبرد، جئت حتى لاأفسد حلمك بيوم صيد، كنا هنا، أكلنا، ثم ذهبت مع سعيد لنملأ زمزمية ماء كبيرة، خرجنا للطريق السريع، السيارات تمرق وتفزعنا، قال لى إنه لا يحب الفتيات اللاتى يحكى عنهن لنا، وأضاف أنه لم يكلم أصلا فتاة واحدة، قال: إنه يتسلى لأننا نفرح بهذه المغامرات المؤلفة، لكنه أثنى عليك يا رفيق، لأنك لا تهتم بحكايات البنات مع إن رفاق عمرك بنات تلعب معهن وتسهر معهن وتغنى أغانيهن.

صببت الشاى فى كوب من زجاج وكوب من خزف، قلت لفايز لقد استيقظ السمك وعلينا أن نصيده.

كان سبب ما حدث أننا فشلنا فى صيد سمكة واحدة، وقرر سعيد أن ينزل ويستحم فى النهر، ولأننى أخاف من البلهارسيا ولأننى لم أنزل النهر أبدا امتنعت عن النزول، أنت أيضاً رفضت تنزل إلى النهر، داعبتك قائلاً: يا جبان.

أشعل سيجارة وقال:

لم أكن جباناً، ملابسى الداخلية غير لائقة لم تكن ناصعة البياض ونصف كم فانلتى كان مفتوقاً تحت الإبط، وجوربى مثقوبا

ويخرج منه ظفر إصبعى الكبير، أنا الوجيه الذى يرتدى القميص الأصفر فوق البنطلون الكحلى، وشعري كان ممشطاً بـ "الفازلين" الذى جعله أكثر لمعاناً.

قرروا النزول للنهر، تفرجت عليهم، سعداء، يرشون الماء على بعضهم، وألعن البلهارسيا وخوفى.

ساعتان ولم يغمز فلين صنارة فايز، بينما فلين صنارتى غمز عشرات المرات، وحين أنتش صنارتى لا أجد حتى عشبة. صاح أنا لم أخُدع مرة واحدة .. أنت مسكين يا رفيق. ضحكت وقلت: لكننى أكاد أنجح.

أزاح البرنيطة للخلف.

هل سمعته ينادينى .. فايز .. فايز .. لم أسمعه، كان الماء يلهو بهم، قال أحمد: بدأنا نصرخ عندما هربت الأرض من تحت أرجلنا، لم أنزل إليهم، ولا رفيق، كنا نصرخ .. كنا نصرخ .. يقبون ويغطسون.

وغرق.

قلت لفايز: كيف وصلنا لهذا المكان بعد خمسين سنة؟

وقف فايز، خلع البرنيطة ومسح المكان بعينيه:

إنه ليس ذات المكان، خلفنا كانت غيطان بلا حدود، وأمامنا بعد الشط غيطان، نمشى كثيراً حتي الطريق السريع، الآن الأبراج

والمخازن والسيارات.

بم.

انتبهنا على سماع طلقة بندقية صيد. شاب بالغ النحافة يحمل بندقية صيد ويصوب باتجاه الشجرة، يحمل على كتفه حقيبة قماش كبيرة، رميت الصنارة، قلت له صباح الخير، رد دون أن ينظر لى، وأطلق طلقات أخرى، قلت له: طارت كل العصافير. قال: أنا أصيد اليمام . ثم سألني: معك شاى؟

جلسنا تحت الشجرة، شعره الأسود معفر بالتراب، وجهه يغرق فى العرق، وبين لحظة وأخرى يبص فى بطن حقيبته ليتأكد من شيء ما، ولما خلع حذاءه القديم المتهالك رأيت قدميه بدون جورب وربط وش رجله اليسرى بقطعة قماش. أعطانى الكوب فارغاً، لم يتبادل معى الكلام، ومضى حاملاً بندقيته على كتفيه مثل الثوار فى الأفلام القديمة.

فايز لا يحب البنادق ولا لغتها ولا لغة أصحابها حتى لو صيادين غلابة. وضع حجراً فوق طرف الصنارة فيما الشص فى النهر والغمازة تتهادى على سطح الماء، جلس على الأرض يرسم بإصبعه على تراب ناعم، ثم قال:

على فكرة أنا يومها لم أهرب .. لا لا .. هربت .. هربت من قسوة الموت الذي أجهله، أنت جريت إلى الطريق السريع.

قلت: نعم .. كنت أبحث عن تليفون طالباً النجدة أرسل أبى جماعة من الصيادين أصحابه ظلوا يبحثون حتى حط الغروب.

قال فايز:

أخذته الجنية وغرزت يده اليمنى فى طين النهر.

قلت:

قفز أحدهم وخرج بالغريق.

ساعة الغروب كان فايز قد وصل إلى دار السينما وقطع تذكرة وحضر حفلتين وشاهد أربعة أفلام وخرج، تسلل إلى سريره وظل يبكى وينشج.

ساعة الغروب لم يصدق أصحابنا أنهم لم يغرقوا.

خلعت الحذاء، تركت الصنارة بجوار الشجرة وأخذت أتمشى حافياً، فرحت بحرارة تنبعث من التراب، هنا بالضبط غرق .. لا .. ليس بالضبط.

قبل انتصاف النهار شد فايز الصنارة من تحت الحجر وأطاح بها فى النهر، عامت على سطح الماء، قال بزهق:

أنا ماشى لن أكمل اليوم، لا أحب النهر، ولا صيد السمك، جئت فقط كى لا أفسد عليك رغبتك فى يوم صيد.

ساعة الشركة

نزلت من التاكسى أمام الشارع الذى يسكن فيه صديقى العجوز فايز، وبالضبط بجوار كشك "ياسمين"، وجدت ابنها النحيل ذا الشعر الخشن، قررت أن أشترى "بسكويت" وعلبة سجائر لفايز حتى لا ينزل أحدنا من الطابق الرابع، قلت للولد النحيل سلم لى على الحاجة، أقصد أمه "ياسمين"، هى التى صارت محطة رئيسية لصديقى فايز، فهى تحجز له علبة السجائر، أو الملبن الذى أحبه على كبر. قال لى فايز إنه سألها مراراً عن زوجها، لكنها أبدا لم تجبه، وأنا نهرته، ابتسم قائلا من باب العلم بالشىء. الولد النحيل أعطانى بقية الفلوس ورد علىَّ: الله يسلمك. قابلنى جار فايز، حيانى بوجه محايد، رافعا يده بتلقائية. فى الطابق الثالث توقفت لألتقط أنفاسى، فوجئت بباب الشقة تفتحه فتاة جميلة ترتدى "تى شيرت" وبنطلوناً ووضعت كيس الزبالة فى الجنب ، قالت بمودة: إزيك يا عمو. ضغطت على جرس شقة فايز، ألح على كثيراً بأن أحتفظ بنسخة من مفتاح الشقة ولكنى رفضت. لم يفتح الباب، آه .. هذه الفصول السخيفة أن يكون نائماً أو فى الحمام، حاولت كثيراً أدق الجرس أو بيدى عبثاً. نزلت الظلمة تحط على السلالم والشارع، توقفت أمام كشك "ياسمين" وتركت

الكيس الصغير بعلبة السجائر والبسكويت. قلت له أعطه لعمك فايز حين تراه. ضحك النحيل كثيرا وقال مبتهجاً: عم فايز مر من ساعة، وكان يلبس البدلة الزرقاء والمنديل الأحمر في جيب الجاكيت ورائحة "الكولونيا" ملأت الدنيا. مشيت لا ألوى على شىء.

فى الشارع العمومى وقفت، أين ذهب العجوز ؟ اتصلت على الموبايل: هذا الرقم غير متاح. ربما يشترى طعاما للعشاء، سأتمشى قليلاً وأرجع، بدأت أختار الشوارع الأقل ازدحاماً، وجدت نفسى فى شارع الإنتاج حيث السور العالى لمصانع الشركة، مشيت على الرصيف الذى انتهى بى إلى بوابة الدخول الكبيرة، هذه البوابة التى يتفنن الأمن كل عدة سنوات فى تكييفها لتكون أكثر أمناً! فمن هنا يدخل آلاف العمال ويخرجون، يتنوع الأمن من جنازير إلى ممرات إلى بوابات صغيرة ضيقة جداً. دخلت، داعبت وجهى نسمة ولسعة برد، هو الفضاء والمساحات الواسعة التى تأتى من ناحية "الاستاد" وحمام السباحة، وعلى اليسار وفى العمق تقوم المصانع الضخمة بدفئها وآلاتها الحديثة وعمالها الفقراء، مررت بمسرح الشركة، كان مظلما بينما كشك الموسيقى مضاء إضاءة خافتة أحبها، ولأننى تعبت من الشوارع التى استدرجتنى إلى المشى قررت الجلوس داخل كشك الموسيقى،

جلست على الدكة المواجهة لساعة الشركة، كنا نراها ونحن قادمون من الطريق الزراعى ونشير باعتزاز: المحلة.

ساعة الشركة التى يحملها برج مرتفع له قمة مخروطية تحط على أربعة أوجه وساعة فى كل وجه، مضيئة، عمال ورديات الشركة يحفظون دقاتها، دقت الساعة، وتلقائياً نظرت إلى عقاربها المضيئة، انتبهت للسمين الجالس على الدكة المجاورة، نهض، وعرج، وجلس بجوارى بلا استئذان، رحبت مبتسماً، هو فى مثل عمرى وإن جعلته سمنته يتكئ على عصا خشبية، أخبرنى أنه عامل سابق بالشركة وممثل مسرحى سابق بفرقتها، وأحد النقابيين المغضوب عليهم من الإدارة ، ضاحكته وقلت له: إنه الخير والبركة، قال: إننا نرمى فى الشارع مثل "إكسسوار متهالك"، كنت أسمع شخشخة صدره وأدرك صعوبة تنفسه، ورغم لسعة البرد يمسح وجهه العرقان بين وقت وآخر بالمنديل المحلاوى الكبير، ثم أخذ يكح ويكح ، ويبصق تركنى بلا استئذان وجلس على الدكة الأخرى، و.. سمعت ضحكته العالية، ضحكة فايز، نظرت باتجاه الصوت، وهالنى رؤيته، كان فايز جالسا على الدرجة الأولى العالية لساعة الشركة بجوار "ياسمين"، بحلقت، وتأكدت، لساعة الشركة ثلاث درجات عالية تصنع مربعا من الرخام البنى حول الساعة، كان المربع الرخامى ساحة لعبنا وتزحلقنا ونحن صغار، وضع

فـايز يده اليـسـرى على كـتف "يـاسـمـين" اليـسـرى، "يـاسـمـين" تلف رأسـهـا بإيشـارب وفى رجليـهـا صندل، أخـرج فـايز سـيـجـارته وعاكسه هواء خفيف وفشل فى إشعال الولاعة، أمسكت "ياسمين" الولاعة واقـتربت لمواجـهـة فـايز، شـدهـا نـاحيـتـه وبيـنهـمـا اشـتـعلت الولاعة، مـدد رجليه عن آخرهما فى سعادة ، أخرجت من حـقيبتـها الكبيرة "تُرمس" وكوبين، وصبت له. اقترب حـارس الأمن وتوقف أمـامـهـمـا، تبـادلوا الكلام، ومـضـى، وقـفـت"يـاسـمـين" ومـدت يدها لتسـاعد العـجـوز على الوقـوف، نهضتُ متـحـفزا للمـشـى، لم أجـد السمين العجوز الذى كان معى فى كشك الموسيقى.

فى البلكونة جلسنا نشـرب الشـاى، بعـد أن خلع الجـاكـيت الأزرق، وشـمـر قـمـيـصـه عن ذراعيه، كـان منتشـيا باسـم الوجـه، وقـال: ياسـلام يا ولد يا رفـيق .. كـان وقـتـا رائعـاً، ياسـمـين هذه خـبـرة. ولما سـألتـه كـيف حـدث هذا أجـاب: الموضـوع أبسـط مما تتصور ياعزيزى، نحن أصحـاب أشترى من ياسمين ما يخصنى، وابنها يحضـر لى كل يوم كشف حساب الكشك لأراجعه وأرسيه على حسابه تماماً، وياسمين تقوم نيابة عنى بأشياء مهمة .. فهى تأخذ الفواتير التى تخصنى من محصلى المياه والكهرباء والغاز، وتدفع الفلوس لحين أراها، أنقذتنى من المحصلين فهم يأتون دائما وأنا نـائم، وصـرنا أحـبـابـاً فـعـزمـتـهـا ذات مـرة على أكلة فـول

وطعمية، ويا سلام على الدفء المكنوز فى الجسد السمين وأنت مزنوق معها على سلم ضيق، وفى المرة الثانية دخلنا السينما وضحكنا بلا توقف على ممثل سخيف، وعند ساعة الشركة كانت المرة الثالثة وأسمعتها ما أحفظ من قصائد رومانسية، وكانت تفهمها يا رفيق، تصور، والكحل يبرز عينين واسعتين أحيانا بلهائتين، ولما أخذنا راحتنا فى القعدة جاء الحارس يلوح لنا بالعيب، فقلت له عيب إنت، ألا ترى شيبتى، ألا تعرف من أنا، ارتبك الحارس وأخذ سيجارة واعتذر، هى حدثتنى عن ابنها الذى فشل فى الحصول على شهادة، وزوجها الذى تزوره فى السجن مرتين فى السنة، وحين فشلت فى إشعال سيجارة من الولاعة اقتربت منى ومنعت الهواء، وتحسست أصابعى صدرها المترهل، وما أن رجعنا حتى سبقتها ودخلت البيت وأنا أعرف أنك تتابعنى وسيأكلك الفضول، فقد رأيتك وأنت تدخل كشك الموسيقى وأنا و"ياسمين" نتضاحك تحت ساعة الشركة.

صورة للسيدة العجوز

سمعت صوت جرس الباب الحاد القصير، دسست قدمى فى الشبشب، وهرولت. لما فتحت الباب طالعتنى سيدة عجوز بشعر مصبوغ بالأسود تتكئ على عصا، قلت: أهلاً. قالت بصوت سمعته فى قديم الزمن: رفيق.

رغم وجهها المكرمش كانت ابتسامتها عذبة ودودة. قلت: اتفضلى.

مشت بتؤدة وحرص حتى جلست على أول كنبة فى الأنتريه. أغلقتُ الراديو فانقطع صوت الموسيقى العالى وحط صمت. العجوز ترتدى جيب وبلوزة زرقاء. رفعتْ رأسها ومن خلال نظارتها البيضاء تعرفتُ على عينيها العسليتين. رددت بدهشة: سهير!! أومأت برأسها نعم. سررت كصبى.

كنت مرتدياً البيجامة والشبشب، جريت إلى حجرة النوم، اخترت قميصاً لونه "أزرق" لم أرتده من زمان، كانت تحب هذا اللون، وارتديت البنطلون الأسود على حذاء أسود، سرحت شعرى بسرعة، وخرجت. يدها الممسكة بالعصا ترتعش قليلاً، قلت مندهشاً: كيف؟ استدعت ابتسامتها القديمة، وقالت: كنت أتصيد أخبارك.. ماتت زوجتك من سنوات، وصرت والعجوز توءمين يتهامس الناس عليهما .. رأيتكما فى السوق ومقهى المحطة وفى السينما.

شددت التربيزة الصغيرة فوق السجادة بصعوبة رددت: نعم نعم. شممت عطراً قديماً أعرفه. قالت بأسى: لكنها المرة الأولى التى أراك فيها منذ اليوم..

خلعت نظارتها البيضاء وبانت عيناها الجميلتان وسط خريطة من التجاعيد. كانت أكبر منى بثلاثة أشهر وأطول منى بخمسة سنتيمترات وكنت أنحف منها، أكملتْ بعد تنهيدة: اليوم الذى رفضت فيه الزواج منك .. كان الجو حاراً جداً ولزجاً. أردفتْ: كان ذلك أكثر من أربعين عاماً .. كنت شاباً أنيقاً .. حبوباً .. تحب الأدب .. وكنت أحبك.

ارتبكتُ. قالت:

– كنت أسمع الأغانى وأظنها كتبت من أجلك .. وأحببت فيروز لأنك تحبها .. وقرأت كل الكتب التى أهديتها لى مضطرة .. كانت كتباً صعبة يا رفيق .. كنت لا أملك سوى ولعى بالمسرح وسناء جميل.. أنت أحببتنى لهذا .. ولكنى لم أحب كتب المسرح .. أحياناً يكون غرام المثقفين دمه ثقيلاً .. أنت كنت بسيطاً رغم حدتك وكريماً رغم نقودك القليلة .. رفضت الزواج منك ببساطة لأن أمى رفضت وأبى رفض وأختى التى تكبرنى والتى ماتت بعد ذلك بسنوات رفضت .. وابن عمى كان ذا منصب وكنت استلطفه، أنت لم تكن حالتك ميسورة .. كنت تفرح عندما تعزمنى على أكلة مكرونة أو فى كافيتريا الكلية ونحن نشرب الشاى فيما "ساري"

يعزف على البيانو أغانى فيروز التى همستَ فى أذنه أن يعزفها.

نهضت واقفاً، انحنيت، رغم آلام عمودى الفقرى، مسحتْ المكان بعينيها، ثم نهضت بصعوبة، استندت على عصاها، ووقفت تتأمل المكتبة واللوحات على الجدار، والراديو القديم الذى ورثته عن أبى، ثم جلست على الكرسى الثانى مباشرة. قالت: ياااه .. حلمت كثيراً أن أراك فى شقتك أجرى وأتقافز وأُعد لك الشاى وأرص لك الكتب، أقف على كرسى الأنتريه وأنشد عليك قصيدة ناظم حكمت التى كنت تحب سماعها بصوتى .. هذه الأبيات التى حفظتها منى كل بنات الكلية.

وأخذت نفساً عميقاً وقالت:

"وأنا لم أهمس فى أذنك.

أجمل ما أتمنى أن أهمس لك به".

بصت لى باستنكار واستغراب وقالت: عندما رفضت الزواج منك مددت يدك وسلمت عليّ ومشيت.. لماذا لم تقاوم؟ .. بل إنك لم تحاول أن ترانى .. هل كنت ضعيفاً إلى هذا الحد .. أم كنت قوياً إلى هذا الحد؟ تنهدتْ. وقالت بصوت ناعم مستسلم: أشربُ نسكافيه .. وأنت شاى كالعادة.

عندما وضعت النسكافيه والشاى على التربيزة، أخرجت من حقيبتها البيضاء الصغيرة ذات الإطار الأحمر الرفيع التى أهديتها لها فى عيد ميلادها الثانى والعشرين أخرجت صوراً من

حجم كارت بستال الأبيض والأسود. رفعتْ صورة أمام عينى. سألتْ: هل تتذكر هذه الصورة؟

السؤال مصحوباً بذات الابتسامة القديمة التى تسحب منى كل غضب أو زعل لو تأخرت عن مواعيدها. الصورة التقطت فى مسرح الكلية، وكنت واقفاً رافعاً يدى لأعلى، فيما هى الممثلة الجميلة تركع أمامى فى حركة توسل، فى الكواليس كنت أقبل رأسها معتذراً عن المشهد.

خلعت حذاءها، ومددت رجليها النحيلتين العجوزتين، أمسكتْ يدى اليمنى بين يديها المرتجفتين، تعثرتْ فى الكلام، بيدى اليسرى طبطبت على كتفها النحيل، شممت رائحتها القديمة عندما كنت أجذبها بيدى من خصرها النحيف فى زحمة قطارات الصباح، وفى قطارات المساء ألتصق بها، نتهامس، أهمس فى أذنها، ويدى الدافئة متشبثة بيدها الباردة.

كنا نحب المشى ليلاً فى الأزقة، وتتباهى بى فى الندوات الثقافية بالكلية، وتمشى فى أرجاء الكلية رافعة لافتة عليها اسمى فى انتخابات اتحاد الطلاب.

أنا أعرف أن الأمر بسيط .. أنا أحببتها وهى تزوجت آخر، حكاية مكررة، وخزنت كل علاقتنا فى صور بحجم كارت بستال. أمسكتُ بيدى صورتنا فى الجبهة: أنا وهى وجنود.

كنا نزور الجبهة فى رحلات طلابية فى العام ٦٩ صارت جزءا

منى، كنا فى الموقع وجنودنا فى خنادقهم فى الرمال، مع عبدالناصر وحرب الاستنزاف صرنا أكثر انحيازاً وحباً للوطن، هى أشعلت المكان بهجة وهى توزع على الجنود الورد، والفرح حتى فى بكائها، وتلتهب أكف الجنود بالتصفيق وهى تغنى، "أحلف بسماها وبترابها" لعبدالحليم، ويردون عليها بعلامة النصر، والدبابات فى مكامنها. أمسك الضابط الكاميرا وقال: واحد.. اثنان. كل الجنود لها وجه أسمر نحيل، مبتسم، ونحن بينهم نحلم بالقادم، هتف: ثلاثة. تشابكت كل الأيادى.

خلعت نظارتها ومسحت بطريقتها دمعة انسابت بهدوء على وجهها المتجعد.

جذبتها برفق وفتحت البلكونة، شهقت من جمال النباتات الخضراء والمزهرة، بصعوبة جلست على كرسى خيزران، وهمست: أعرف عنك كل شىء .. وأنت؟!، قلت: لم أسع لمزيد من الألم، فقط احتفظت بصورتك وصور فى حجم كارت بستال، وقلم أبنوس.

كنا فى الحديقة عصراً، وأطفال يلعبون، وطيور تحط على حافة النافورة وتطير.

- ماهذا؟

- قلم أبنوس .. عيد ميلادك يا جميل.

طارت عصافير وحطت أخرى، يومها أكلنا الفطير الساخن من عجوز يبيعه خلف سور الحديقة، واختبأنا تحت شجرة كبيرة لم نخرج منها إلا حين سمعنا صرصور الليل، فكان الليل، وخرجنا وجهان مختلفان، جسدان مختلفان؟ يومها أعطيت لها قلبى ومضيت.

استندت على ذراعى بيد، واتكأت على عصا بيد. كان جسدها يرتجف، ودخلنا دفء الشقة، جلست، فتحت شنطتها وسحبت منها صورة ورفعتها أمامى، وقالت بفرح: صورتنا مع الدكتور سامى، وزملائنا عوض وسمير وسعاد وجمالات، لم تفارقنى.

كنا فى صباح شتوى ولحظة سطوع الشمس جرينا من الكافيتريا فى سعادة، وقفنا صفاً للصورة، الكل ينظر فى عين الكاميرا ويبتسم، وكانت يدى مرتبكة بين أصابعها، واستوقفت الكاميرا هذه اللحظة، فبين بنطلونى وفستانها يدان متشابكتان خلسة. ضحكت عالياً وقالت كل الزملاء علقوا على تشابك يدينا، أنت الوحيد الذى ظننت أن أحداً لن يراها.

كانت تزر عينيها وتنظر فى الساعة بين حين وآخر. قلت: انظرى أنا وأنت وفايز فى الكافيتريا، جاء ليرى هيامى وولعى، تعرف على زملائنا وتناول معنا الغداء، ودخن السجائر طوال الوقت، وأعجب بآمال وهى أيضاً لم تفارقه وعندما ابتعدا كانت

تصلنا ضحكاتهما، وفى نهاية اليوم جاء عماد وقدمته آمال لفايز: عماد خطيبى.

فى الصورة كانت يدى على كتف سهير، وسهير ممسكة بيدها قطعة شيكولاتة، وأنا طفل فرح، وفايز ينظر إلينا بإعجاب.

هزتْ رأسها وهى تردد: شاب جميل قلبه أخضر.

ضحكتُ حتى أدمعت عيناى وأنا أقول: صار عجوزاً مثلنا.

نهضتُ، وفتحتُ درج المكتب، مددت يدى وأخرجت صورة خاصة احتفظت بها سراً طوال عمرى، قدمتها لها بيد مرتعشة، لم ترها من قبل. فتحت فمها دهشة، وابتسمت ملامحها. قلت: صورتها لك وكنت جالسة وحدك على دكة خشبية خلف المدرج الكبير، كنت مسترخية تماما. ممدة رجليك للأمام ورجعت للوراء، وفى لحظة عقد يديك خلف رأسك وصدرك بارزاً للأمام يستقبل الحياة، التقطت الصورة.

ابتسمت وسألتنى: هل كنت بهذا الجمال؟!

أومأت برأسى نعم.

بصتْ فى ساعة يدها، وقفتُ مرتبكاً. همستْ: سأرجع. قلت: ولكن.

مدت يدها: قد نلتقى.

فتحتُ باب الشقة، أمسكتْ بيدها اليمنى الدرابزين واستندت

بالأخرى على العصا، وضعت قدمها على درجة السلم الأولى، وبحذر ظلت تنزل، وأتابعها خوفاً من تعثرها، حتى اختفت.

٢٥ يناير - ١١ فبراير

صار ارتباطى أنا العجوز بشاشة التليفزيون والفضائيات ليلاً ونهاراً، هو المشاركة الممكنة، أحياناً كنت أسأم نفسى. أهرش شعرى الأشيب فى خلفية رأسى، لا أستطيع الأكل أو النوم، مقدمة رأسى الأصلع باردة، آه يا يناير، ألبس الطاقية الصوف، أشرب الشاى بكثرة، وأحياناً أفرح كشاب وأتقافز وأنا أغنى مطلب الميدان: الشعب .. يريد .. إسقاط النظام.

ابنتى قسمت وقتها بين بيتها وبيتى، قلت لها لا تخافى أصبحت شاباً .. بعد شيبتى رأيت ثورة! : تقول لى المحلة مشتعلة .. المظاهرات لا تتوقف. قلت لها هذا يدعو للطمأنينة .. لا تقلقى .. بيننا موبايلات.. واحنا على اتصال. تبتسم، تطبطب عليّ وتمشى، ألمح الدموع فى عينيها، وأتصنع أنى لا أرى، وأجرى إلى شاشة التليفزيون متجاهلاً آلام ظهرى. أشد كرسيا وأقترب من الشاشة لأتابع وأقرأ شريط الأخبار الذى يحمل كل دقيقة أخباراً جديدة عن شباب مصر فى ميدان التحرير.

مليون شاب فى الميدان! ذات الميدان الذى وقفنا فيه ونحن طلبة حول القاعدة الحجرية، ذلك اليوم البعيد فى بداية سبعينيات القرن الماضى، ذات الميدان الذى مارسنا فيه حب البنات وتبادل المنشورات وانتظار أتوبيسات مدينة الطلبة، ومن الميدان ندخل

شارع طلعت حرب ونجلس على مقهى ريش بفرح العشاق مع نجيب محفوظ.

أتقافر، ألوح بيدى بالطاقية الصوف وأهتف:

الشعب .. يريد .. إسقاط النظام.

فى شبابنا كنا نردد مع "أمل دنقل": أيها الواقفون على حافة المذبحة .. أشهروا الأسلحة". فى الميدان يشهرون مطالبهم، يريدون كرامتهم. يغمرنى الاستغراب والفرح، ولحظات من الغيظ وأسأل نفسى: لماذا لا يمشى!!

وتترى أمامى صور خراطيم المياه التى ضربت الشباب فى الليلة الأولى بعد منتصف الليل، كنت وحدى أرتعد برداً، وأخشى أن أتصل بفايز المنفعل والذى لا يكف عن الزعيق ضد نظام مبارك، أشعر بضربات الماء القاسى تضرب صدرى وقلبى. لففت نفسى فى البطانية، رن الموبايل: أنت بخير يا بابا؟ طبعاً بخير.. وفرحان، وأشارك فى المظاهرة .. حتى اسمعى .. الشعب .. يريد.. إسقاط النظام.

وكنت أشهق من البرودة.

فى هذا الأربعاء الدامى قتلوا شبابنا، المأجورون وأصحاب المصالح والبلطجية. قتلوا بالرصاص الحى والمطاط وزجاجات المولتوف، هربوا المساجين، وروّعوا النفوس. ابنتى خرجت وشتمت: أولاد الكلب. والميدان كان يرتج بنداء واحد: ارحل.

قلت لابنتى وأنا لا أصدق نفسي: إنها الثورة.

فجأة سمعت أصوات صراخ فى الخارج، وصدى طلقات رصاص عالية مفزعة، طلقات جارحة للحياة. جريت مندفعاً أطلت من البلكونة، هل وصلت المظاهرات إلينا فى المحلة! عم "بدر" زعق يحذرني:

- البلطجية والمساجين بيهاجموا البيوت.

اهتزت فروع الريحان النحيلة، فشممت عطراً والشبان يخرجون للشارع الضيق. هرولت، ونزلت للشارع، شبان لم أتعرف على ملامحهم، كانوا ينظمون أنفسهم بسرعة، متسلحون جميعاً إما بعصى خشبية ضخمة، أو فروع شجر، أو سيوف يدوية الصنع. قسموا أنفسهم على مداخل الشارع، وأمام مصانع التريكو البسيطة المغلقة. شد الحاج "طاهر" يدى وقال: خليك معانا. الحاج طاهر يمتلك جراراً كبيراً رسم عليه عيناً كبيرة واسعة وقد رشق فيها السهم وكتب تحتها بالخط العريض "عين الحسود فيها عود". جرنى من يدى حتى منتصف الشارع، هذا مكاننا، وانضم إلينا "بدر" وقد لف نفسه فى عباءة جوخ قديمة لونها جملى، كان يسعل أحياناً ويمسح بين حين وآخر شاربه الكث المتهدل. أبناء الحاج طاهر الثلاثة الشباب حمل كل منهم جاروفاً واتجهوا لأول الشارع، ثم جاء أحدهم بالجرار وسدوا الشارع

بحيث فصلنا عن الشارع الرئيسى تماماً. بدر جارنا من زمان عامل فى شركة المحلة، وابنته المطلقة ليس بمقدورها أن تنزل الشارع معنا لتحميه. قلت لطاهر: تنسحب الشرطة وأولادنا فى التحرير يبقى لازم نحمى أنفسنا. مر شاب راكباً "فيزيا" مر كسهم و[illegible]صرخ عالياً صرخة تشوبها الفزع: البلطجية يهجموا من ناحيـ[illegible]ـلة البرج". واختفى. ظهر "حسن صاروخ" أعرفه، رأيته مرات وأنا أركب معه "التوك توك" هو ربعة لكن الجميع يخشاه ويعمل له ألف حساب، وأصر مرات أن لا يأخذ الجنيه أجرة التوك توك، ويقول: أنت أستاذنا. ويتركنى ويمضى وأنا مستغرب. حسن صاروخ وقف بجوار عامود النور وبيده ماسورة وإذ بها تصدر صوتاً كطلقة بندقية. فتحت فمى، فقال طاهر: بندقية يدوى.. صوت.. صوت فقط. فابتسمت، وواصل صاروخ طلقات بندقيته اليدوى، وقام بذلك ليرهب البلطجية واهماً إياهم بأننا مسلحون غير أننا سمعنا طلقات نار حقيقية. هتف شاب: عيارات النار تقترب.

دق قلبى بعنف، طلقات نسمعها كرعد، يتميز بفزع وجبن، جرى ثلاثة شبان أحدهم الولد "على" العامل فى السوبر ماركت، يحمل سيفاً صنعه على عجل عند زميله "روماني" الحداد الذى يعمل على توك توك ليلاً. سطع ضوء خاطف فى السماء، وسمعنا أصوات عجلات سيارة قادمة بعنف. شددت الجاكيت المقفول وأحكمت

الكوفية على رقبتى، وجريت، سبقنى الشبان لأول الشارع أمام المتاريس التى جعلوها من شجرة ضخمة اقتلعوها من على رأس الشارع وجرجروها على الأرض فيما الأطفال تتقافز حولها وهى تغني:

- يا برتقال أحمر وحديد .. بكرة الواقفة وبعده العيد.

فيما كنت ألمح احتشاد النساء والأطفال فى البلكونات وكنت أرى العجائز ينظرن من بين فتحات الشيش، وكنت أطمئن الأستاذ "حامد" العجوز القعيد الذى يتحرك بكرسيه ذى العجلتين بانفعال. وهجمت السيارة النصف نقل مثل غول، هرولنا وجرينا من أمامها ومرقت وخبط الشكمان فى الشجرة المتراس، ثم ارتطمت بالأرض مرات عديدة، يعتلى السيارة النصف نقل رجلان ملثمان يوجهان بنادقهما الآلية لأعلى فيما طلقات الرصاص متوالية. ولمحنا جميعاً امرأة منتقبة مع الملثمين وكانت تتحرك فى كل اتجاه وبيدها بندقية.

انطلقت السيارة وخلفها جرى الرجال والشبان، لكن البرودة والظلمة يحطا علينا بقوة. فى البعيد توقف الجميع. جذبنى طاهر إليه وقال: اطلع .. حط حاجة ثقيلة على جسمك وارجع .. الليل طويل. لكنى اتجهت للجالسين حول راكية النار فى وسط الشارع، جلست أرضاً بينهم، ومددت ذراعى واستشعرت صوابعى الدفء.

همس عجوز فى أذني: هل تظن أن المنتقبة ست .. هذه رجل. كان الحاج طاهر يضحك ثم رفع رأسه لأعلى ونادى على زوجته الواقفة التى لا تفارق البلكونة: أنزلى براد شاى كبير.

فى الليلة الثانية.. نزلت مع غروب الشمس، ارتديت الجاكيت الثقيل، وطاقية صوف، وعصا أبى التى تنازعت عليها مع أخوتى وأصررت أن آخذها ودهشت زوجتى حينها- لأننى تركت الثمين وتمسكت بعصا، قلت لها: إن رأس الثعبان الذى يميز العصا مشغولاً بروح فنان، وأن خشبة العصا ذاتها من أجود أنواع الشجر، ابتسمت حين وقفت على عتبة الباب وأنا أشيح للجميع بعصاى، فصفق الشبان وهتف بعضهم: مية مية ياعم رفيق.

طاهر رجع مبتسماً حاملاً فى حضنه أغصان شجرة وكتلة خشب ضخمة، أتى بها من الفضاء الذى ينتهى إليه شارعنا، وكان قديماً مزرعة جوافة انتهت إلى ساحة بدون جوافة وبقايا جذوع شجر، فى الأعياد يأتى إليها الغلابة بأراجيحهم القديمة ودواراتهم العتيقة، ليتحول المكان لملاعب فقيرة غنية بالفرح والصراخ الجميل وملابس العيد الرخيصة، وميدان التحرير فى هذه اللحظة يشتعل من أجلهم بالثوار يهتفون " عيش .. حرية .. عدالة اجتماعية". وتعلو صيحة التأكيد: هو يمشى .. مش هانمشى.

حاول طاهر مراراً إشعال الغصون بأعواد الكبريت، ولم يفلح، الفتاة ذات الوجه المليح نادت على أبيها الملتفح بعباءة الجوخ

القديمة، فنهض واستقبل "السبت" الهابط من الطابق الثالث بمهل. ورفع من السبت زجاجة الجاز وحين سكب الجاز على الغصون هبطت يد حسن صاروخ بالولاعة فاندلعت النار. جرجر الشبان أبواب سيارة قديمة وعمود نور صدئ ليكون المتراس الأساسى للسيطرة على مدخل الشارع. قلت لهم: الحل أن يتنحى مبارك. رد العجوز بحماس بالغ مؤكداً: يتنحى يعنى يمشى. وارتفعت ألسنة الدفء لوجوهنا.

سمعت صوت حسن صاروخ يناديني: عم رفيق .. عم رفيق.

نهضت معتمداً على عصاى تركت الضوء خلفى. صاروخ أشار عليه: أتعرفه؟!!

صحت: طبعاً .. فايز؟

أخذت فايز من يده الباردة، وقلت بدهشة: تأتى فى منتصف الليل .. كيف .. مجنون؟!! قال فايز: لا مفر .. الثورة بدأت ولا مفر.

جلس معنا بعد أن فك أزرار البالطو، ورفع "الآيس كاب" عن أذنيه، واحتفظ بكوفية كبيرة ملونة ومزركشة اشتراها من سوريا فى إحدى سفرياته، احتفظ بالكوفية ملفوفة، قال العجوز فى صيغة سؤال: أين الثورة؟!!

تنقل فايز بعينيه بيننا وقال: ثورة .. ما حدث فى مصر وإسكندرية والسويس والمحلة .. ثورة. ثم ضم العجوز إليه: أنت فى الثورة الآن ياريس.

ابن طاهر نزل من بيتهم بصينية كبيرة تحمل عدداً هائلاً من أكواب الشاى وفنجان قهوة لفايز، لطعم الشاى ودفئه فى هذه اللحظات إحساس بالغ القيمة. ما أن وضعنا الأكواب الفارغة حتى انطلق يغنى المواويل بصوت رخيم، عم على النجار الذى كنت أمر عليه يومياً بدون تحية كان بديعاً وهو يطرز مواويله القديمة بمفردات الحرية والكرامة وأسمائنا. بين ساعة وأخرى كنت أطلع للشقة أعرف آخر الأخبار من الفضائيات بالتليفزيون وأنزل، هذه المرة تلكأت قليلاً، دخلت المطبخ وفى الزيت المغلى وضعت الذرة الصفراء ونزلت لهم بالفيشار الساخن، حلة الفيشار الساخن، تجمع الشبان والتهموا الفيشار وهم يغنون ويصفقون، اقتحم حسن صاروخ كل الحوارات وحكى عن "ميدان الشون" والآلاف التى احتشدت هناك، وقال: المحلاوية لن يتركوا الشون ومبارك لازم يترك مصر. قال روماني: ياناس نفسى أشوف رئيس تانى قبل موتى.

الليل يدخل فى برودة يناير، ورنات الموبايلات لا تتوقف، فايز أكثر المتكلمين، أغلقتُ موبايلى حتى أوهم ابنتى أنى نائم. فيما

يسأل طاهر: ما هو النظام؟ هببت واقفاً حين شاهدت ضوء نار متوهجاً، جريت، سبقت الجميع، هرول الجميع باتجاه الضوء، قابلنا محسن طالب الهندسة رافعاً ذراعيه لأعلى ثم هتف: أشعلنا شجرة، أشعلنا شجرة على مدخل المنطقة.

حين جلسنا حول راكية النار، وبعد أن أُذن لصلاة الفجر ملتُ على فايز سألته: لماذا جئت؟

شد الآيس كاب حتى أُذنيه وهمس: لأطمئن عليك.

- مساء ١١ فبراير ٢٠١١ .

كان عمر سليمان فى التليفزيون، وأنا متوتر، متوجس من أحكامهم العسكرية أو الشروع فى قتل جديد، وما أن نطق أن الرئيس تخلى عن منصبه حتى رميت العصا من يدى ورميت الطاقية الصوف من رأسى وجريت إلى البلكونة وأنا فى حالة من الفرح والدهشة، عملوها أولاد التحرير. وزعقت بكل ما أملك: مشى .. مشى.

رن الموبايل وجاء صوت فايز فرحان: مبروك يا رفيق .. مشى.

واتفقنا أن نلتقى فى شارع البحر، هذا الشارع الطويل الذى ينتهى بميدان الشون، ارتديت ملابسى كيفما أتفق، هرولت إلى الشارع، وكان الجميع يجرى باتجاه قلب المحلة، بين الآلاف رأيت عيوناً أعرفها، وأحلاماً استقيظت فجأة، رأيت زوجتى وأجدادى

وأعمامى وأحفادى وأبى وأمى وزملاء مدرسة الأقباط الإعدادية، وزملاء السياسة الشبان جميعاً يجرون، وابنتى تتقافز تهتف: الشعب .. خلاص .. أسقط النظام. وبالغرابة المشهد الآلاف تردد هتاف ابنتى، وأنا الذى لم أستطع فعلها على مدار ستين عاماً، الشبان الذين لا عمل لهم، ولا مأوى، يتفجرون بفرح مفاجئ، وأبناء الطبقة الوسطى ينظمون الشعارات، والرجال يهتفون مع النساء، نجرى إلى الدبابات نأخذها فى أحضاننا، الدبابة لا تدهسنى، أطبطب عليها وأبتسم للضابط وأرسل قبلة فى الهواء للعسكرى، السيدة السمينة تبيع أعلام مصر ونأخذها بفرح، رفعتُ العلم لأعلى وأنا أردد الهتافات ورأيتنى التلميذ فى مدرسة جلال الدين الابتدائية ونحن نهتف ضد العدوان الثلاثى، الضابط اقترب منى وقبل رأسى واحتضنته وبكيت، ضباط الجيش يلوحون لنا بفرح، لا أعرف سر ابتسامتهم العذبة تلك، لم أشعر بآلام ظهرى، أو ضربات قلبى، أو أعراض ضغط الدم اللعين، كان موج البشر يجرفنى معه حتى وجدته أمامى تحت الكوبرى العلوى، أخذنى فى حضنه .. فايز!!، كيف التقينا رغم الحشود، احتضننى طويلاً، ثم سألنى بغتة: هل تصدق؟!!.

أحلام ياسمين

كنست أمام الكشك، رششت الماء بعلبة صغيرة من الصفيح، ووضعت كرسيين مدورين بينهما تربيزة مدورة وما أن مرّ حتى أمسكت بيده وأجلسته على الكرسى المدور، وبسرعة وضع "زيكو" كنكة الشاى فوق السبرتاية على رف الكشك، وأطل برأسه من فتحة الكشك كالعمل الردى. تنحنحت ثم قلت:

أنا ياسمين يا بيه.

رد الشاب: أنا لست بيه، خدامك عبدالمولى، سكرتير المحامى الشهير المتر "حسن" تعلمت منه أصول القانون وأية مشكلة قانونية يمكن عرضها وتقديمها فى ملف خصوصى للأستاذ، ما هى المشكلة يا ست ياسمين؟

وضعت كوب الشاى على التربيزة، وكان الولد زيكو يقرض أظافره ويبص لى كالعفريت، قلت: أبداً يا بيه .. ليست مشكلة قانونية.

أحكمت لف الإيشارب حول رأسى، وقلت : هى مشكلة زوجى.. و .. مشكلتى.

انتبه عبدالمولى جيداً وشعر أنه وضع يده على بداية القضية، واستمع لى كرجل مهم، شجعنى بهزة من رأسه، وهمس: قولى.

قلت: زوجي إسماعيل وشهرته "الموس" فى السجن منذ خمس عشرة سنة وعقوبته هى المؤبد.

كل كلمة خرجت بصعوبة. هل حقاً إسماعيل ما زال حياً فى السجن؟ فى شهره الأول فى السجن انفطر قلبى عليه، وكنت مع لحمتى الطرية المفعوص "زيكو" وحدنا، طوال الليل أبكى كان يرمى لى بالفلوس، وأفرح حين أرى الناس تخشاه ، وأضرب صبيانه على قفاهم. فى الليل أبكى وتجف دموعى، وطوال النهار أجلس تحت الكوبرى السفلى وأمد يدى أشحذ القرش وأعرض زيكو لمن لا يشترى حتى يتفرج، وآخر النهار أعبر السوق وألتقط النافع مثل كرتونة فاضية أو علب صفيح ، وأملأ طرحتى بخضراوات وطماطم مهروسة وبصل. فى الزيارات أجرى ملهوفة لزيارة إسماعيل الذى يبكى بحرقة وقد قصوا شعره الكثيف الخشن، يبكى مثل صبى مسكين ويقول: أنا مظلوم يا ياسمين.

وهل هو مظلوم فعلاً يا ست ياسمين؟

لا أعرف يا بيه.

عبد المولى ضم حاجبيه وأصبح شكله مخيفاً وهو يستجوبني: ما هى تهمته؟

أسرعت بالقول: هى فعلا تهمة، اتهموه يا بيه إنه اغتصب بنتاً فى الترب، والبنت ماتت، كانوا ثلاثة، إسماعيل منهم، وإسماعيل

حلف إنه لم يشارك فى هذه الفضيحة لكنه وقف على رأس الترب حتى ينبههم عند اللزوم، وماتت البنت التى لا يعرفها أحد، ودخل إسماعيل السجن منذ خمس عشرة سنة.

رجع عبد المولى للوراء وسأل فى قرف: وماذا تريدين منى الآن؟ أخرج لك إسماعيل من السجن!

قلت له بسرعة: لا يا بيه .. أنا لم أر إسماعيل من سنين، الذهاب لزيارته فى السجن تكلفة، وزيكو ابنى كبر وصار رجلاً، فبعد أن ساعدنى أولاد الحلال فى بناء كشك من الخشب على رأس الشارع أصبحت صاحبة الكشك، وأصبح ابنى ساعدى الأيمن والحارس الأمين، مستعدة أترك له الكشك بما فيه.

تنهد عبد المولى وسأل: ماذا تريدين بالضبط؟

قلت فى تلعثم، ولا أعرف كيف جرى الكلام على لسانى هل .. هل يمكن .. الطلاق من إسماعيل؟

هتف عبدالمولى من خبرتى السابقة فى هذه القضايا طبعا طبعاً .. لكن صمت فجأة وزغر لى بعين قاسية: لكن لماذا الآن؟

سكت طويلاً ثم وضع يده خلف أذنه واقترب منى.

رجعت للخلف وقلت فى ثقة.. لقيت ابن الحلال

عبد المولى فرد ظهره ورفع حاجبيه وسأل: يا ترى من هو؟

همست فى خجل: الأستاذ .. فايز .

عبد المولى اندهش جدا، وقال باستغراب: الأستاذ .. فايز .. العجوز .. الكائن بالدور الرابع .. فى العقار رقم ٢٥؟!

هززت رأسى مؤكدة: نعم .

قال باستغراب ودهشة واعتراض، لكنه أفندى.. أستاذ .. رجل كبير .. على المعاش .. يبدو أنيقاً ومستوراً .. وربما كان قبل المعاش مديراً مثلاً .. و .. قاطعته .. القلوب عند بعضها يا أستاذ .. حين سكن فى الشارع كنت أول من تعامل معه، كان وحيداً، ولما تعامل معى ومع البسكويت وعلب الشاى والسجائر والسالمون وأكياس الشيبسى والزبادى لم يعد وحيداً، صرت أنا والكشك ونسه فى الشارع، وصار صاحبى، يحدثنى عن كل شىء، حياته الماضية وعزه السابق وزوجته التى ماتت، وزوجته التى هجت، وعن صاحبه الوحيد فى الدنيا العجوز مثله، ذات مرة شكا لى من برودة الدنيا ووحدته ففهمت أنه يلمح للزواج منى، ثم طلب توصيل الطلبات للشقة، هو رجل محترم جداً، وأنا ست محترمة، أقف على باب الشقة فى تردد وخجل، كان يكح ويقول أدخلى يا ياسمين، ومرة طاوعت رجلى ودخلت، كان يعطينى الحساب ويشكرنى، وذات مرة قال لى نشرب شاى يا ياسمين أم ياسمين بالشاى، وضحكنا وضحكنا ، وصرت أشتاق لكلامه وضحكه، حتى اقترحت عليه أن نتمشى معاً حتى ساعة الشركة ونجلس

هناك، كنت أريد أن أحكى له عن إسماعيل لكننى خبأت الحكاية فى صدرى، هو أيضاً لم يعطنى فرصة كان مثل يحيى شاهين وشكرى سرحان، يتحدث كالممثلين، ورجعت وكل حلمى فى الدنيا أن أتزوجه.

عبد المولى بلع ريقه وسأل: تتزوجى الأستاذ .. العجوز .. فايز؟

سارعت بالإجابة: نعم .. على سنة الله ورسوله .. سأخدمه بعينى وأطيعه، هو غلبان وأنا غلبانة، هو عجوز يحتاج لمن يساعده، هو معه الفلوس نشترى اللحمة والخضار، وأنا حرفة الطهى والنفس المعتبر، سأكون خادمته يا عبد المولى بيه، لا أريد غير الستر، على فكرة هو طيب جداً، وربما .. ربما يعنى .. أظن .. إنه قد يوافق على أن يعيش معه زيكو، ثم وضحت لعبد المولى: ولو رفض .. لا مشكلة، ابنى عنده الكشك والحجرة التى نعيش فيها، نعم .. أنا وزيكو نعيش فى حجرة تحت سلم، ما أن يؤذن للفجر حتى نخرج للنور ونعيش حياتنا فى الكشك والسوق وخدمة الناس.

التفت ناحية الكشك وبص عليّ زيكو، زيكو يضغط على شفته السفلى بأسنانه، قلت بسرعة: تصدق .. زيكو هذا لم يضع سيجارة فى فمه أبداً، ولو أخذ الحجرة سيفرح خالص، وأنا طبعاً سأفرح بخدمة الأستاذ فايز، وسأرعاه، هل تعرف يا عبد المولى

بيه، من يوم أن دخل إسماعيل السجن وأنا أعيش بشرف، وأخاف الله، وربيت ابنى أحسن تربية، لا أخفى عليك أشتاق لحنان رجل وحماية رجل، أتخيل نفسى دائماً فى بلكونة الأستاذ فايز فى الشمس وأنا أنشر له الغسيل وأغنى مثل شادية، أو أرد على الموبايل وأقول لا .. الأستاذ نايم، أحلم أن ألمع له البلاط والمكتبة والكتب، هو لا يكتنز غير الكتب وأنا ست لا أقرأ ولا أكتب، ولكنى أفهم يا بيه، نفسى أتمدد بعد الغداء فى السرير وأنام، ثم أقوم وأدخل المطبخ أعمل كوب شاى، وأنادى يا فايز .. يا فايز، فلا يرد، وأخرج فأجده جالساً فى البلكونة مع الأستاذ رفيق العجوز مثله، فأقول بخجل: أأمر يا أستاذ فايز، فيضحك ويقول الشاى لرفيقى، ذات مرة شرح لى رفيقى يعنى أخويا، لا أحد يطل عليّ فى الدنيا سواه، أطلب من الله أن أموت قبله، قلت له يعطيك طولة العمر يا سى فايز. مسحت دمعتى بطرف الإيشارب وقلت لعبد المولى: تعبت من وقفة الكشك والنوم من التعب والصحو للشقاء، وزيكو رجل يقول لى نفسى يا أمى أكبر الكشك وبدلاً من البسكويت والسجائر أبيع الموبايلات وكروت الشحن ونصبح من الأغنياء، وأنا أتمنى أن أترك له الكشك أحسن ما يصبح لص شقق أو سيارات أو يخطف الشنط من البنات أليس كذلك يابيه، عبد المولى بيه عندك واسطة للأستاذ فايز؟

اتنفض عبد المولى ونهض، ومضى كالملسوع، خرج زيكو وهو يقرض أظافر يده، وكنت فى غاية الكسوف.

زيارة متأخرة

الفيلا قائمة كشبح ، وحيدة بلونها الأخضر القاتم على أطراف المحلة، هناك، بعد جهد وصلنا. نهض الحارس الذى يرتدى اللون الكحلى من كرسيه، ورمى الجريدة فوق مجلات وجرائد أخرى على تربيزة خشبية لها زخرف من الأرابيسك، فتح البوابة الضخمة، صعدنا درجات سلالم الدور الأول، الحارس فتح باب الشقة وانحنى، ابتسم الذى ينتظرنا، ودهشت من منظره، ليس هو "شعبان" الذى رأيته أخر مرة منذ عشرين سنة، أصبح سميناً، وشعره الغزير الناعم صار شديد البياض، لم يصبه الصلع، ونظارته جديدة علينا، وجلبابه فضفاض ناصع البياض، تعرفنا على بعضنا من أول وهلة. هلل فايز بفرح:

- شعبان صاحب النجوم.

اتجهنا إليه هو القعيد فوق كنبة مذهبة، رجلاه متدليتان فى شبشب من القطيفة الحمراء، احتضنه فايز وداعبه وقبله. احتضنت شعبان وقد فارقته رائحته القديمة، همس بصوت واهن:

-كيف أنت .. يا .. رفيق أليس كذلك؟

- وابتسم ابتسامة مكسورة.

ذراعه اليمنى تتحرك بصعوبة بالغة وذراعه اليسرى تتحرك

بسهولة، وفى رسغه ساعة ذهبية، التقطت بسرعة اللون الذهبى الذى يحط على الأشياء ويؤطر المكتبة الضخمة التى تمتد من جدار لجدار، حتى نظارته الذهبية وساعته.

بعد أن شربنا القهوة أكد أن النظارة من الذهب الخالص والساعة من الذهب الخالص، وكانت فناجين القهوة والكنكة من الفضة الخالصة، ثم انهمر فى البكاء واحتضن فايز وهو يقول:

– هذا ما حصدته يا رفيق .. من كل عمرى.

وأشار إلى التليفزيون المعلق على الحائط، والأجهزة الحديثة بالغة النظافة حكى لنا عم "طلعت" أن شعبان لم يتزوج، وبعد موت أمه وأبيه صار وحيداً إلا حساب فى البنك، وأعطانا عم طلعت عنوانه مكتوباً فى ورقة وقال:

– السلام أمانة.

عندما دخل الحارس ليغير صينية القهوة بصينية أخرى فوقها براد الشاى وطقمه من القطع الصينى، وقطع الكيك الشهية ، أشار شعبان:

– هو .. لا أحد سواه.

المكان يفضح وحدته، حين سمعنا نباح كلب، ابتسم شعبان، ودفع بإصبعه نظارته للخلف.. وقال:

– ركس .. أعرفه.

دهشت من ضخامته وضيق عينيه وتهدل شفته السفلى.

عشرون سنة، قبلها تخرج من الجامعة شاباً نحيلاً يرتدى الجلباب، يفخر بثقافته وموسوعته العلمية وعربيته الخشبية التى يجرها فى عصر كل يوم ليبيع النجوم الورقية والطائرات الورقية الملونة.

زمان فى الطابق الأول الذى يسكنه كان يجلس على الحصير وبجواره أكوام من الورق الملون والبوص الرفيع والسلك والنشا والدبابيس، يعمل بهمة ولا يتوقف عن الكلام فى الشعر والسياسة لكنه أبداً لم يتكلم عن امرأة أو فتاة يحبها، أقعى فى الركن وسط كومة من النجوم أواصل القراءة فى نسخته من كتاب الأغانى للأصفهانى، ويضاحكنى دائماً وهو يشير إلى مكتبته:

– لو قرأت ربع هذه الكتب يا رفيق سأمنحك عشرة جنيهات كاملة.

حين أصبح مدرساً للغة العربية، احتفلنا احتفالاً خاصاً، وذهبت مع فايز وشعبان سينما "نادر" وشاهدنا فيلم "بداية ونهاية" وأذكر يومها بكى من حلاوة أداء "سناء جميل" وظل طوال الليل يقارن بين الفيلم ورواية "نجيب محفوظ" وواقعية "صلاح أبوسيف" حتى طلع علينا الصبح، فارتدى بنطلونه وقميصه وحمل بيده كشكول التحضير، ومشى بخفة. رجع بعد الظهر فوجدنا

مازلنا نائمين بين الورق الملون والنجوم.

يقول فايز ونحن نطل عليه من شباك الطابق الأول المطل على الحارة وهو يدفع عربته أمامه بسعادة :

- شعبان يبيع الألوان والبهجة للعيال.

كان أحياناً يلاعب العيال ويجرى بعربته المحملة بالنجوم التى تدور من هواء خفيف، والعيال خلفه يجرون فى فرح، وهو دائماً يضع منديل محلاوى ما بين ياقة جلبابه وقفاه ليرتدى الجلباب أطول فترة ممكنة، ويلم القروش ليشترى الكتب القديمة من "عم طلعت". فى حجرته يجلس فوق صف من الكتب ويهتف:

- أنا جالس على أمهات الكتب.

ليال كثيرة كنا نتنصت وهو يتلو علينا قصائد من "المتنبي" وفايز لا يكف عن تدخين السجائر ورمى أعقابها فى علبة سلمون مملوءة بالماء، يحرص شعبان على وضعها بجواره حتى لا يحرق الورق والنجوم والدار.

وأقرأ عليه قصص "تشيكوف" ويا ويلى لو أخطأت فى نطق كلمة، هو الأستاذ فى النحو الذى يراجع شهادات الماجستير والدكتوراة، ويقبض الفلوس ليقبض على أمهات الكتب ليقرأها.

فايز يقول بدهشة وحسد:

- شعبان غول قراءة.

لكنها الإعارة التى أخذته إلى حلم بلا أفق، أراد التخلص من عربة النجوم، وشراء بدلة للمناسبات، وصنع مكتبة بالخشب والزجاج ليحمى كتبه، وهمس فى أذني:

- أريد شراء بوتوجاز.

قلت مضيفاً:

- وتليفزيون.

شد ياقة جلبابه إلى قفاه وقال بقرف:

- لا أحب التليفزيون.

لم يكتف بسنوات الإعارة، لكنه انقطع عن عمله ومدرسته وظل معلماً فى سلطنة عمان والعراق وليبيا واليمن، وهناك كان يحقق حلماً جديداً مباغتاً فى المحلة هو بناء الفيلا ذات المرايا والنحاس والذهب والرخام حتى داهمته سن الستين فرجع محملاً بالحقائب.

فى يومه الأول حيث لم يستقبله أحد فى الفيلا الساحرة، بل ولم يعرفه أحد فى المكان، وحين فتح باب شقة الدور العلوى التى نجلس فيها الآن هاله ما رأى من هوس الفخامة التى أمر بها، فوقع إثر جلطة فى الدماغ، وظل جسده يتضخم ويترهل، ولم يقم.

همست:

- ماذا فعلت فى البلاد البعيدة؟

رد بصعوبة:

– فلوس.

زاغت عيناه وأردف:

– وذهب .. ورخام .. و ..

نهض فايز ووقف أمام المكتبة الهائلة وقال لنفسه: ذات الكتب التى كانت فى حجرة النجوم.

امتدت يد فايز تزيح الكتب، يشب على أطراف أصابعه ليقرأ عناوين الكتب المذهبة. ردد بدهشة:

– لم تزد كتاباً واحداً

جلس فايز بجوار شعبان، احتضنه بيده الشمال وسأله:

– أقرأت ماركيز؟

ضم شعبان حاجبيه، همس:

– سمعتُ .. سمعتُ عنه

ثم أدمعت عيناه وهو يقول لي:

– قرأت .. أنا .. قرأت .. أمهات الكتب

سأله فايز:

– هل تعرف قصيدة النثر

لم يرد.

كان بيد شعبان ريموت يشغل التليفزيون، وعلى الترابيزة، ريموت لفتح الستائر، وريموت لمكيف الهواء، وزر يضغط عليه

فيأتى الحارس.

استغربت عندما سألنى عن أمه وأبيه وعن أخته التى مشينا فى جنازتها منذ ثلاثين عاماً!

بص فى ساعته الذهب، وسأل:

- كم الساعة الآن؟

احتضنه فايز بأسى وقبله من خديه، قبلتُ جبينه، وعندما رفعت يدى لألوح له، خرج صوته الواهن وقال وهو يؤكد على كل حرف:

- روحى شاردة..

نزلنا درجات السلم، شعر فايز بالدوار، قلت له: تماسك.

انحنى الحارس، وأغلق البوابة بهدوء، ونبح "ركس".

ذراق

ما أن رجعت من الإسكندرية وفتحت باب شقتى حتى اتصلت برفيقى العجوز رفيق، كان كسولاً لايريد أن ينام، قلت له مع السلامة، أغلق الموبايل قبل أن يرد. انتابتنى فرحة مباغتة. فى الصالة أضأت مصباحاً واحداً لتظل مسحة الهدوء والرومانسية. خلعت الجاكت ووضعته على الكنبة المقابلة للمكتبة التى تغطى الجدار. ثلاثة أيام فى الإسكندرية، بديعة هذه المدينة، كوبرى ستانلى، وشارع خالد بن الوليد، ومحطة الرمل، والبحر .. البحر. لمحت كتاباً مقلوباً على وجهه، أحياناً أضع بعض الكتب ذات الغلاف الجميل على رف المكتبة بشكل رأسى فأكسب كتاباً ولوحة، أمسكت بالكتاب وفى لحظة وضعه فى مكانه طار فى وجهى شىء ما، أو قفز، أو نط أو هاجمنى.. لا أعرف، رفيف مفاجىء وعدوانى، ارتعدت من المفاجأة، أحنيت رأسى وأمسكتها بيدى وذراعى مدافعاً ضد مجهول، لحظة وحط الصمت، أنزلت اليدين بحذر وتفحصت المكان بعين متوجسة. لاشىء ترى ما هذا؟ وطواط؟ كيف .. أنا .. وأنا أستعد للسفر للإسكندرية أغلقت النوافذ وشيش البلكونة. ربما نسيت نافذة، أعطيت ظهرى للحائط، مددت يدى أضأت كل المصابيح، ضاعت الرومانسية فى بحر

الضوء، أضاءت النجفة لأول مرة منذ سنوات، راجعت النوافذ، كلها مغلقة، لا يمكن عندى وطواط ولا عصافير، لو عصفورة لطارت وتخبطت وحاولت عبثاً أن تحط على الحائط الأملس، تنصت، ثم انحنيت، بحثت بعينى بسرعة، ليس عفريتاً بالطبع، حين فاجأنى هذا الشىء شعرت بجناحيه قويين لأن كمية الهواء الصادرة منه كانت غير معتادة، والجسم كاد يرتطم بوجهى، أو هكذا خيل لى، غير أنه طار بقوة واختفى بسرعة فائقة، نزلت على ركبتى وأطللت برأسى أسفل المكتب العريض، لم يكن سوى الدواسة الخشبية، مددت يدى وبخفة حركت الدواسة وشددتها للأمام ورجعت بسرعة للخلف فقعدت مكانى ولم أجد شيئاً.

أنا عبيط فعلاً، هذا توهم، الصالة مثل الفل، لا شىء يخدش جمالها، ولا ناموسة واحدة، نهضت مسروراً، وخبطت على مؤخرتى ونفضت البنطلون من التراب وقررت تناول لقمة قبل كوب الشاى. ياه الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، ابتسمت .. لهذا السبب كاد رفيقى ينهرنى وأنا واقف أبحلق فى السقف ضغطت برجلى اليمنى على كعب فردة الحذاء الشمال، ثم ضغطت برجلى على الفردة اليمنى وخلعت الحذاء، كان أبى يزعق لى على عادتى السيئة، خلع الحذاء دون فك الرباط، كان يزعق فيّ: داء .. ما تقعله داء. ابتسمت. بحرص فتحت الثلاجة وما أن مددت يدى

حتى ارتاح صدرى فلم ينط منها شىء. أنا عبيط، شغلت التليفزيون، قناة تعرض فيلم "عصافير النيل" جلست فرحاً أمام التليفزيون آكل الجبن والزيتون الأخضر، أنا أحب الزيتون الأخضر، وبدأت أقوم رغماً عنى ببعض بالونات الاختبار، فأغلق التليفزيون فجأة واتنصت، أو أكف عن المضغ وأبص فجأة لليمين أو الشمال، ومرة حاولت الغناء بصوت مرتفع لكنى توقفت فزعا فقد سمعت وشيشاً، هرولت باتجاه الصوت. وجدته وشيش صوت الماء فى البراد، اطفأت البوتاجاز وكف الوشيش، استمتعت بكوب الشاى وعصافير النيل.

لما دخلت حجرة النوم رميت نفسى على السرير، ثم ظللت أرهف حواسى لأسمع أية نأمة أو لمسة هواء غير عادية، سرت الطمأنينة فى جسدى مع الدفء وتنصت حتى نمت.

فى الصبح دخلت الحمام وخرجت وتذكرت ماحدث بالأمس، فهرعت إلى النوافذ والبلكونة وفتحتها، اندلعت الشمس بالضوء والدفء، لو كان عفريت يطلع لى، وخبطت على صدرى كسبع، وصفرت بفمى عالياً "أول مرة تحب يا قلبي". فى المطبخ وضعت البراد فوق عين البوتاجاز المشتعلة، وحط الشاى والسكر، وعند دخولى حجرة النوم لأبدل ملابسى وفوق عتبة الحجرة بالضبط رأيت ذراق طائر، وقفت مندهشاً ومذعوراً فى آن، لم أرها عند

استيقاظى، أيا كان تصنيف وتسمية هذا الشىء كيف حدث فى شقتى وعلى باب حجرة نومى، انحنيت قليلاً، وأكثر، ثم ركعت على ركبتى، لا جدال هذا ذراق دجاجة، بالطبع، فأنا أعرف جيداً ذبل الفأر، ناشف! منذ متى إذن! سمعت الوشيش العالى وشممت رائحة خانقة، جريت إلى المطبخ شلت البراد الذى لم يحترق بالفوطة ورميت به فى حوض الغسيل تحت الحنفية، ولما فتحت الحنفية صرت فى حمام من بخار.

بعد ساعتين هدأت، وكان على أن أعرف سر الذراق، راجعت نعل أحذيتى، والشباشب. عضضت شفتى غيظاً، بغض النظر عن كونها آثار دجاجة أو حمامة أو فأر أو وطواط فإن كائناً غريباً يعيش فى شقتى، وهو الذى طار فى وجهى بالأمس، وهو الذى حط أو وقع أو انكسر ولم يقم، يمكننى إضاءة المصابيح على "الفوتيه" ممدداً رجلىّ حافياً، لم أكف عن البحث بعينى فى الأرجاء المتاحة، طبعاً أخرجت من حسابى العنكبوت والناموس والذباب والصراصير والسوس وكلها كائنات تعيش معنا بشكل أو بآخر، ثم إن خراء القطط والكلاب مختلف عن البقعة الموجودة على عتبة باب حجرة النوم، وبالتأكيد لا يمكن للخروف أو الماعز أو النوق أن تختفى فى شقتى، هرشت شعرى، سأخرج من حسابى أيضاً الثعبان والسحلية والبرص، ما رأيته ذراق الدجاجة. أستطيع بكل خبرتى الحياتية تأكيد هذا.

صاحبة البيت السمينة التى صعدت لى بعد إلحاح وظلت جالسة ربع ساعة تلهث، بعد أن التقطت أنفاسها سألتنى عن ورطتى، وعندما شافت عتبة باب حجرة النوم كزت على شفتها السفلى وشعرت أنها تشفق عليّ كعجوز وقالت: إنه ذراق دجاجة، وأردفت امسكها واحبسها فى قفص، ثم أخبرتها أنى لا أربى دجاجاً، وسألتها الحل. قالت: ارم لها الذرة أو القمح وستراها بأم عينيك.

قلت للبائع: أريد ذرة مدشوشاً و .. لا أعرف بالضبط لكن عندى دجاجة وأريد أن أؤكلها. ابتسم الرجل وأعطانى الكيس ونصحنى بأن أضع لها الماء.

فى الشقة حاولت أن أضع الأكل الفخ للدجاجة فى المكان المناسب، ولكن لماذا لا أسمع صوتاً لها، مشيت حافى القدمين، اتنصت، أتحرك بحذر، أرهقت عينى فى البحث الدائم. رن الموبايل فجريت متلهفاً وتكلمت مع رفيق الذى لم يكف عن الضحك وأنا أحكى له، صرخت فيه ألا تدرك مدى توترى، ألا تعرف أن حياتى توقفت، يظل يضحك، وختم كلامه معي: كبرت وخرفت يا فايز. وقفل الموبايل، أتخيله الآن يتمايل جذلاً .. العجوز .. الذى بكى منذ عامين لدخول فأر بشقته ووصل به الأمر أن ترك الشقة، واشترينا مصيدة ووضعنا بها الجبن الرومى حتى سقط الفأر بعد ليلتين.

تعثرت فى طبق الذرة ووعاء الماء، قفزت برعب، اكتشفت غبائى، هل لابد أن أضع طبق الذرة ووعاء الماء على مدخل حجرة النوم بالضبط مكان الذراق؟ اخترت مكاناً آخر مثل كمين، ووضعت طبق الذرة بين تربيزة التليفزيون والكرسى المزنوق فى الصالة، ودخلت ونمت.

كانت المفاجأة المدهشة فى الصباح عندما وجدت طبق الذرة خالياً ووعاء الماء مقلوباً وبعض الماء مدلوقاً، إذن نحن معاً، صعد الدم ساخناً فى رأسى، جاءت فكرة مدهشة، حشرت قدماى فى الشبشب ونزلت درجات السلم مسرعاً وجريت إلى كشك "ياسمين" كان "زيكو" واقفاً ولما حكيت له ظل يضحك ساخراً، وأشاح بيده: ياعم روح .. عاوزنى أقفل الكشك عشان أمسك فرخة!!

فتحت باب الشقة بهدوء بالغ، وبقلب مضطرب، خوفاً من أن تطير فى وجهى، أو لا أراها رأى العين، لم أجد شيئاً، خلعت الشبشب ومشيت حافياً، وأمام دورة المياه دسست قدمى فى الشبشب الخفيف ودخلت، فانتفض الشىء فى وجهى وخبطنى فى جبهتى، وبكل شجاعة أغلقت الباب لأواجه الشىء فى الداخل، الحمام ضيق، بانيو وحوض وش، كاكت الدجاجة عالياً، ودق قلبى بسرعة، ورأيتها أمامى، دجاجة بيضاء فقدت لمعان ريشها، وبصت لى بعينين مدورتين بدون تعبير، مددت ذراعى عن آخرهما،

وأصـابعى مـتـشـنجـة لأنقض عليـها فطارت بعنف، خـيل لى أنـها خبطت فى السقف ووقعت فى حـوض الوش، فى اندفاعى للحـوض اصطدم إصبع يدى الكبير بالحـوض، آلمنى بشدة، كنت مصراً على اكـتمـال المواجـهـة، طارت من الحـوض واصطدمت يدى بـالحنفيـة، أدرت رأسى بسـرعـة فـائقـة لأتابـع الدجـاجـة التى سـقطت خلف الغسـالة. سكتُ، سـاد الصـمت تمامـاً، ركزت على ركبتى، ومـددت يدى بحـرص خلف الغسـالة، سـمعت صـوت الدجـاجة، مـددت يدى بأقـصـى مـا أسـتطيع وأمـسكت بـهـا، يدى ترتعش وجسـدهـا سـاخن ينتفض، ارتفع صوتها صـارخاً، شددتها بعنف، من خلف الغسـالة، وقفت ممسكاً بها بين يديى، أبص لها بغيظ، اندفعت إلى البلكونة، رمـيت بهـا، أخـذت تتـأرجح وترفـرف، حـتـى اخـتـفت، كنت ألـهث وأنشف عرق وجهى، عندمـا رأيت جارى السـاكن فى البيت المقـابل وهو يضرب كفاً بكف.

دخلتُ الصالة وجلست أرضـاً ألملم أنفاسى، تحت الكنبة المقابلة رأيت فردة حذاء بها بيضة، باستغراب وحذر شددت فردة الحذاء، بوجل تلمست بأصابعى بيضة دافئة.

ولا عــزاء

كنت مستلقياً فوق الكنبة على ظهرى، أتابع مروحة السقف التى تلف ببطء وأسـرح قليـلاً، وقليـلاً أغـفـو، وأتابع بأذنـى صـوت التليفزيون وأميز بدقـة صـوت إسماعيل ياسين وهـو يستغيث "يا عمتى".

وسمعت صوت المفتاح فى كالون الشقة، ثم دخلت ابنتى على أطراف أصابعها، فقلت بدون النهوض: ادخلى.

ابتسمت وبعد مقدمات عن الصحة والمزاج وماذا أكلت وعن "فايز" شدت كرسى وتنحنحت وسألت:

- أنت تعـرف الست "فـريال الحلواني" .. أم الدكـتـور فـؤاد الصفطي

اعتدلت جالساً، وبعد لحظات قلت:

- هذه أسماء أعرفها فعلاً .. والحلوانى عائلتى .. والصفطى .. ما الموضوع؟

ابتسمت بافتعال وقالت:

-أبداً .. فريال كبيرة العائلة ماتت.

رجعتُ للخلف:

- الله يرحمها .. أسمع عنها.

- بابا .. السيارة تمشى فى الشوارع، وتعلن عن الدفنة بعد صلاة العصر.. والعزاء فى المساء أمام عمارة فؤاد الصفطى .. إنها ابنة عم أبيك.

نهضت وقلت بغضب ودلع أب:

- قلت لك أريد قفصاً به عصافير ملونة .. أربعة عصافير .. أو ستة أريد أن أسمع زقزقة معى فى الشقة .. كرهت أصوات الموبايل.

زمت شفتيها وسألت بحدة:

- ألن تشارك فى الجنازة، أو تذهب للعزاء !!

جلست على الكنبة بجوار صديقتى "البوتس" الخضراء وحاولت الشرح:

- أنا لا أعرف أحداً فيهم .. هم من عائلتى .. لكن .. لا أظن أنهم يعرفوننى.

بصت فى عينى وردت بسرعة:

- بل يعرفونك، اسمك فى أول قائمة العائلات والأنساب التى يعلنونها فى الميكروفون، و يقولون رفيق الحلوانى عميد عائلة الحلوانى.

تمتمتُ:

- ياه .. صرت عجوزاً لهذا الحد !!

طبطبت على كتفي:

- بابا .. لابد من المشاركة.

جلستُ متذمراً كطفل، قلت بعد جهد:

- ليس لى فى الجنازات ..أنا عجوز .. نعم عجوز .. مسألة المقابر .. والدفن .. ثم .. أنا لم أرها من حوالى خمسين سنة .. نعم .. كنت مع أبى...

تذكرت المشهد فاستهواني:

كان أبى جالساً واضعاً رجلاً فوق رجل، والطربوش الأحمر الأنيق فوق رأسه، وهى تنحنى وتقدم له الفاكهة فى طبق زجاجى كبير، نعم .. فريال الحلوانى . لأنه قال بحدة اسمعى يا فريال .. ليس لى علاقة بزواجك هذا .. سلام عليكم. ورمى جريدة الأهرام على التربيزة فوق نظارتها الشمسية، أبى لم يأكل الفاكهة، وأنا .. كنت ألعب فى زرار الراديو الموضوع بشكل لائق به .. فريال كانت تشبه الممثلة "زوزو نبيل" والفستان أزرق بلا أكمام، أبى جرنى من يدى وخرجنا .. تصورى كانت تشبه زوزو نبيل فعلاً!

أخرجتُ الورقة وراجعت العنوان، دوران محب، شارع ... دلنى صوت قارئ القرآن، يجلجل عالياً، ثم رأيت السرادق يطغى بأضوائه على المكان، سرادق ممتد وطويل، الثريات المتدلية حشد من الضوء، وأبهة تفرض نفسها على المكان، عدلت ياقة القميص

والجاكيت الأسود، سأقدم العزاء وأسمع سوراً من القرآن، ثم أسلم وأمضى، قبل مدخل السرادق لاحظت شخصاً واقفاً بكتفيه تهدل ويرتدى جاكيت بالياً فوق جلباب متسخ، باغتنى بمد يده، لم ينبس بكلمة، مددت يدى فى جيبى بتلقائية وأنا أمد يدى بجنيه معدنى، عرفته، فاروق، لا أعرف كيف تعرفت عليه على الفور، رغم أن عينيه كليلتان، بحلق فى وجهى، خيل لى أنه يبتسم، لم يتغير رسم شاربه منذ كان شاباً، شعر شاربه شديد البياض، فى شبابنا كان شاربه يشبه شارب "كلارك جيبل" وكان يدعونا فى ساعة محددة لمكان معين لنراه مع فتاته، التى كان يغيرها كل فترة، كان يسرق الفلوس من دكان أبيه، أكبر دكان قماش فى العباسى، ليدخن السجائر الأجنبية، فى لحظات الصفاء والصدق كان يحكى لى الأفلام التى تعجبه، كل الأفلام الجميلة عرفتها منه، وكنت أراها بعد ذلك فى السينما، كان فاروق .. خيل لى أنه يبتسم .. هل عرفني؟ أرجعت يدى الممسكة بالجنيه، ثم أخرجت من جيبى كل ما معى من فلوس ودسستها فى يده، لم ينبس بكلمة.

دخلت السرادق .. على الجانب الأيمن يقف خمسة رجال متأنقين فى بدلات السهرة السوداء، بينهم شاب صغير، مددت يدى للرجل الأول، ملامحه محايدة، ليس حزيناً، أو يدعى التأثر، بدلة سوداء، كرافت أسود، ونظارة بيضاء، خلفها عينان ملونتان،

أصلع، نحيل، طويل، أمسك يدى بكلتا يديه، ولما حاولت تجاوزه شددت يدى لأواصل تقديم العزاء يدى إليه قائلاً:

- إلى أين يا سيد رفيق؟ مكانك هنا.

وأفسح لى مكاناً بجواره تماماً، فوقفت مأخوذاً، مال عليّ وهمس:

- البقاء لله يا أستاذ رفيق.

وابتسم ابتسامة سريعة وغاص فى حزنه.

انهمك الجميع بما فيهم أنا فى تقبل العزاء شاكرين سعيهم، جلسنا، والقارئ بصوته البديع وجميل الآيات يشدنا ويسحرنا.

بدأت فى مسح الجالسين بعينى، تعرفت على وجوه قديمة، هلت من "الوراقة" كانت شابة، وصارت عجوزاً، شخوص متماسكة تشد ظهرها، وشخوص بعضها ترتعش يده الممسكة بعصاة، بدأت استرجع وجوههم أيام الحى القديم، عبدالله .. ياااه .. حارس مرمانا الشهير، صار نحيلاً عجوزاً، أصلع تلحظ بسهولة ارتعاش فكه، يلبس القميص والبنطلون ويهتز مع الآيات بانفعال ووجد، حارس مرمانا الشهير .. كان كلما سجلت هدفاً يجرى عليّ بجسده القوى مثل وحش ويشيلنى على كتفيه، ذات مرة وقعت من على كتفيه واصطدم رأسى بالأرض ونقلت إلى المستشفى العام، ولما خرجت من المستشفى حملنى حتى وضعنى فى الحنطور.

ولا أعرف كيف التقطته عيناى، الأستاذ عباس مدرس الحساب، بعصاه كان يضربنا حتى نصبح من تلاميذ الدرس الخصوصى فى "سويقة الأقباط" الدور الثالث، كان لا يكف عن التدخين، كان يلقننا درس الحساب فى حجرة الطعام حول تربيزة السفرة، ثم أصبح صاحب معظم ما يسمى بمعاهد الدروس الخصوصية، يبدو أنه كف عن التدريس، يتكىء بذقنه على عصاه، فيما جسده السمين جداً وكرشه يشد الأنظار، إذن هكذا التقطته عيناى.

حسن .. نعم هو .. أشطر تلميذ فى اللغة العربية فى فصلنا، طبعا صداقة دامت فهو صاحب أكبر محل فسيخ، وكنت زبونه فى كل شم نسيم، كنت آكل فسيخه ولا أخاف من التسمم !

انتابتنى سعادة ما فى التعرف على الأشخاص واكتشافها، فاستغرقتنى، من بعيد أحنى لى رأسه محيياً .. شحاته ابن عمى، جالساً بكرشه المدور الكبير وجلبابه ناصع البياض، كان رشيقاً، يدخن الحشيش ويرقص فى كل أفراح العائلة، ومرة ظل يرقص مع راقصة واحدة أمام العروسين حتى الصباح، كان يحبنى جداً ويعطى لى الكتب لأقرأها وكان يعشق توفيق الحكيم.

عند نهاية سورة القرآن أقف مع الخمسة الآخرين لشكر من سيمضى وتقبل العزاء من الوافدين الجدد، وكانت فرصة لتأمل الوجوه، أهل الحى الجديد الذى رحلت له عائلتنا لا أعرفهم، وأهل

حينا القديم كنت أحاول استعادة الملامح والذكريات وأجرد أشكالهم من شيخوختهم لأعثر عليهم، فشلتُ كثيراً، عجوز فى مثل سنى مد يده واحتضننى وقبلنى بصدق وقوة وهمس فى أذني: يا غالي يا رفيق .. يا حبيبى .. وترك يدى ومضى محنى الظهر، شعره الغزير الأبيض ذكرنى بذلك الشاب ذى الشعر الغزير الأسود الذى قبض عليه فى كل مظاهرات عمال المحلة.

تنفست الصعداء لأن المهمة انتهت بنجاح واستنتجت بصعوبة اسمين أو ثلاثة من أهل السيدة فريال منهم طبعا الدكتور فؤاد الأبيض اللون، الأنيق الذى يتباهى كثيراً بكل الأطباء الذين حضروا العزاء، مددت يدى للدكتور فؤاد قائلاً: البقية فى حياتك. رد عليّ مباشرة: البقاء لله . ثم شد على يدى متسائلاً فى تعجب: أين أنت يا سيد رفيق؟ شرحت له أننى مشغول .. و .. رفض تماماً، وقال: لن نتركك الليلة.. العشاء بالداخل. وجذبنى من يدى بقوة حتى كدت أنكفئ، وتقريباً جرجرنى حتى باب العمارة، على شمالنا درجات لا بد تنزل إلى البدروم، ثم صعدنا للدور الثانى. الطابق أوسع مما أتصور، حجرات عديدة، صالة واسعة، وصالون، وأنتريه، سجاجيد، ونجف، رحب بى شباب وفتيات بود شديد، شاب سلم عليّ بحرارة وقال : إنه كان يتمنى أن يرانى من زمان، وأنه يسأل عنى فى كل آن. جلستُ بجوار من لا أعرفهم،

تقدمت منى سيدة فى الثلاثين تقريباً مدت يدها وسلمت وجلست بجوارى وقالت: أنا سميحة ابنة عمك، أو بدقة ابنة عم أبيك .. سمعت عنك كثيراً. أومأت برأسى مرحباً، قلت: أهلا يا مدام.. جسمها ممتلئ وليست سمينة، لونها أبيض ولا ترتدى الحجاب مثل الكثيرات. ردت بابتسامة عذبة: أنا آنسة، ثم أردفت: أعرف أنك تحب الفن والكتابة .. أنا رسامة.. أرسم بكافة أنواع الألوان، وحصلتُ على الجائزة الأولى على مستوى المحافظة وعرضتُ أعمالى فى بينالى بالقاهرة، أشهر لوحاتى زهور رسامة، نشرت فى أكثر من مجلة .. هل رأيتها؟ سوف تراها.. رأيك يهمنى جداً.

ثم ابتسمت بسعادة حقيقية. ولما تململتُ، مالت إلى أذنى وهمست:

لن تكون غريباً .. هذه السيدة فى الركن القصى خالتى .. مات زوجها من عشرين سنة، ابنها ضابط فى الجيش والثانى طبيب بيطرى، نعم هى عجوز، لكن لاحظ ملابسها الفخمة .. أنظر .. على يمينها عمتى التى لم تتزوج.. نحن عائلة منكوبة أو متميزة، كثير من سيداتها لم يتزوجن، رغم جمالهن الملحوظ والشهادات العالية التى حصلن عليها، وهذا هو الحاج على صاحب أكبر محل بقالة "بالوراقة" اسمه الآن سوبر ماركت، الحاج على ابن عمى، سافر غزة وليبيا والعراق ورجع صاحب ثروة، وهذا عبده عامل فى

شركة الغزل من أقاربنا، خدوم جداً، لو طلبت منه لبن العصفور يجلبه لك، وهذا الشاب الوسيم "نبيل" ابن عمتي لاعب كرة يد وأمه تبكي ليل نهار لأنه لم يلعب كرة القدم، غير أنه كابتن الفريق وانضم لفريق مصر الوطني، وأحرز معه بطولات، لكن لا أحد يعرفه، وهذه هي سناء، أشهر راقصة في أسرتنا .. نعم، نستدعيها في أي فرح أو عيد ميلاد، تغني أحياناً، لكنها تفضل الرقص، هي قريبتنا من بعيد.

تقدم عجوز مسن له هيئة السفرجي الذي نراه في الأفلام، وانحنى قائلاً: تفضلوا.

دخلنا صالة طويلة تتمدد فيها مائدة طعام طويلة ورأيت اثنى عشر كرسياً يلفونها، وفوقها من صحون الطعام كل المقاسات، بينما الطيور تعلن عن نفسها مشوية ومحمرة، ورائحة الخضار والصلصة واللحم المشوى تفوح في المكان، كنت متورطاً فعلاً، أي انغماس في الطعام سيكون فيه قتلي، أنا الممنوع من أكل قائمة من الطعام، قليل من الأرز، قطعة كوسة، ونصف قطعة لحم، انشغلت بها طوال الوقت، فيما تناثر الكلام عن الإخوان المسلمين والمجلس العسكري والمظاهرات والنيران التي اندلعت في مدن عدة، وعن قطع الطرق، حكى كثيرون عن مواقفهم وسياراتهم وخوفهم وبشاعة ما يرون، فيما يبرز الدكتور فؤاد بين

الجميـع ممسكاً طوال الوقت بشـوكة فى يده اليسـرى وسكين فى يده اليمنى، يعبر عن آرائه وردود فعله بوجهه، يتأمل، يهز رأسه موافقاً، يتأمل، يمط شفته معترضاً، من بعيد كنت ألمح سميحة وهى توجه السفرجى بين وقت وآخر، وابتسامة هادئة لا تفارقها.

فى الصالون والأنتريه والصالة تفرقنا إلى مجموعات تشرب القهوة السادة، طلبت كوباً من الشاى لظروفى الصحية، وبدأت حلقات الذكريات فأسمع عن أيام إعدادى طب، ومظاهرات الطلبة، وعام الضباب، وأول زوجة للحاج شعبان، والرحلة التى انتهت بانقلاب الأتوبيس، وردم النهر، وأيام الكرة الذهبية، والتخرج، والحج، و ....

تعبت تماماً أزحت الكرسى للخلف بحجة الذهاب لدورة المياه، من حظى الحسن لم يتابعنى أحد، وعند باب الشقة وبينما غمرتنى السعادة وشعرت بنسمة هواء حتى أمسكت سميحة بيدى، سألت:

- إلى أين يا أستاذ رفيق؟

وقفنا فى الممر الذى يطل على درجات السلم، تفهمت موقفى، أدركت غربة المكان الذى كنت فيه، لكنها ألحت على أن أرى أم الفقيدة فريال، اندهشت، سألتها: أليست هى كبيرة العائلة؟ ابتسمت سميحة بانكسار، وهمست:

- هذا فى الإعلان عن الوفاة، وهذا ما يعرفه الجميع لكن .. أمها .. الست "عنايات" تجاوزت المئة عام، وتقريباً لا يراها أحد ولا يعرفها أحد.

لم تتركنى سميحة لدهشتى، شدتنى من يدى ونزلنا درجات السلم، همست لي:

- وجهها العجوز الصامت بطل لوحاتى.

على اليمين توقفت وأشارت إلى البدروم، وضعت يدها فى جيبها وأخرجت المفتاح، فتحت الباب، الذى حف فى البلاط ثم انفتح بسهولة، همست: تفضل.

نزلنا ست درجات، هاجمتنى رائحة الرطوبة، الحجرة كبيرة ينيرها مصباح نيون صغير مثبت بالجدار، تحته إطار صورة من طراز قديم، الصورة قد تكون لفتاة، الملامح باهتة. فى صدر الحجرة سرير تنام عليه الست عنايات فيما الشباك الصغير فى الجدار والذى يعلو السرير بقليل مغلقاً بالشيش والزجاج، كرسى فوتيه طراز قديم جداً على اليمين، وكرسى آخر على الشمال، وأرض مفروشة بسجادة حائلة اللون.

- من؟

خرج الصوت الضعيف الواهن.

هممت أن أرد، استوقفتنى سميحة.

أردفت الست عنايات:

- حسن.. حسن .. حسن

همست سميحة:

- الست عنايات قعيدة.. فاقدة الذاكرة.

شممت رائحة صنان.

أردفت سميحة:

- مكومة على سريرها من سنوات عديدة، لاتعرفها العائلة.

حين جلست على الكرسى اندفعت قطة سوداء من تحت الكرسى، ماءت ثم قفزت إلى السرير ودفست نفسها تحت الغطاء مع الست عنايات.

قد يكون مغلقاً

حين مرت أربع وعشرون ساعة ولم أر أو أسمع صوت رفيق توأمى العجوز، قلقت، وتلخبط كيانى، افترقنا على أن نلتقى فى الصباح، شكا من آلام عموده الفقرى ومشى

?ولم يأت. قلت لنفسى لا بد راحت عليه نومة وفى المساء قلت ربما شده فيلم فى التليفزيون، وتناولت رغيف خبز أسمر وقطعة جبن وشربت الشاى، ولم أنم..

فى اليوم الثانى لم يأت، فتحت شيش البلكونة فدخلت الشمس وفرحت قليلا بالحياة، وتراقصت وأنا أفتح الموبايل لأحدث العجوز الكسول، اتصلت، فسمعت صوت السيدة يقول الهاتف الذى طلبته قد يكون مغلقا ضحكت. أعرف أنه يقع فى حيص بيص عندما يصيب موبايله أى عطل حلقت ذقنى ورششت الكولونيا اللاسعة، وشددت ظهرى ونزلت، ولما صعدت إلى شقته كنت أجهز له مفاجأة وصولى ثم أعنفه على سوء تصرفه، وفى النهاية سنجلس طبعا ونتناول الفطور ويشرب الشاى وأشرب النسكافيه، وربما نجلس فى البلكونة بين زرعه الكثير و.. لم يفتح. بعد جرس طويل لم يفتح، هرشت شعرى الخفيف وكورت يدى وطرقت الباب، ولم يفتح. غريب، لم يقل إنه مسافر أو سيذهب لابنته، ربما هو فى

الطريق إليّ.. الغبى.. لماذا لم يتصل؟

أخرجت الموبايل، جاغى الصوت.. قد يكون مغلقا لماذا لم يصلح الموبايل وهو فى الطريق أو يشحنه أو يكلمنى من أى مكان؟ نزلت الدرجات غاضباً، عبرت الشارع بالعرض، أطللت على شقة رفيق وجدت البلكونة وقد أحكم غلق شيشها، ركبت توك توك ونزلت فى الشارع الرئيسى، كاد ظهرى يقصم، فردت ظهرى بصعوبة ومشيت حتى البيت، اعترضت طريقى بابتسامتها الواسعة، وبدت أكثر سمنة، لم أستطع انتزاع ابتسامة ضئيلة، بادرتنى ياسمين: خير يا أستاذ فايز؟ أشحت لها بيدى ومشيت، سمعتها تقول لابنها المشرئب برأسه من شباك الكشك .. حد مات له!!

لا أعرف لماذا حط الصمت على شفتى.. وحل وخم ثقيل. أضأت كل المصابيح، وشغلت التليفزيون، وحاولت أن أفهم لماذا أنا حزين؟ فتوصلت لأننى وحيد، لجأت إلى الموبايل لحل الموضوع، ياللغباء لم أسجل رقم ابنة رفيق، تابعت الأرقام ليس سوى البقال والسباك والكهربائى وبائع السمك وأختى الوحيدة العجوز وابنى فى البلاد البعيدة وصانع كراسى الجريد ما هذا؟ اشتريت كرسيين وانتهى الأمر، سأمسحه، مسح.. تم المسح..

بعد قليل سيطرق الباب، سأزغر له وأهتف غاضباً: كنت فين يا

عم؟ سيبتسم رفيق ابتسامته العذبة ويقول: سأحكى لك حكاية لطيفة.. ما إن أشرب النسكافيه حتى يأتى، وشيش الماء فى البراد على البوتاجاز له صوت مرتفع، جريت، شغلت التليفزيون بالريموت توقفت عند محطة الأغانى، الونس يملأ المكان، سيأتى وألاعبه طاولة وأهزمه كعادتى، وكعادته سيقول: إنه يلاعبنى بربع دماغ لأنه لا يكترث بهزائم الطاولة. صببت الماء المغلى على النسكافيه، لم يأت، خرجت إلى البلكونة، لوح لى جارى المقابل بلا اهتمام، استغربت ولوحت له بلا اهتمام، أطللت على كشك ياسمين أراه من هنا بصعوبة لأنه فى ذات الصف مع البيت، لقد أغلقت الكشك، لابد أن الساعة الآن العاشرة والنصف.. فعلا وخمس دقائق، غالبا لن يأتى، هذا أفضل، قررت أن أقضى ليلة هانئة، فتحت صفحة؛ الفيس بوك؛ فوجدتنى ووجدت الأصدقاء الافتراضيين، والتعليقات اللذيذة والمضحكة والقاسية. دهشت، الوحيد الذى ليس على صفحتى هو؛ رفيق؛ لأنه لا يملك صفحة عليه؛ الفيس بوك؛ ولأنه بالكاد يقرأ الجرائد على الكمبيوتر، على إذن التوغل فى الصفحات الأخرى على الإنترنت.

فى الصبح راجعت الأرقام التى اتصلت بى على الموبايل لم أجد رقم رفيق، قبل أذان الظهر سيأتى مهرولاً حاملاً فى يده شنطة بها الطماطم والخيار والخبز. على أية حال سأغسل فاكهة

وأصفها فى الثلاجة، وعندى الكثير من الشاى والسكر.

بعد الغروب صرت عصبياً، هل مات مثلا فى الطريق العام؟ هاجس بشع، شددت بنطلونا وقميصا كيفما أتفق وحشرت نفسى فيهما، هرولت إلى الشارع، أكاد أنكفئ على وجهى، فيما أتصور أنه فى لحظة ما سيخبط فى كتفى فأتنفس الصعداء، بالضبط أتنفس الصعداء هو التعبير الدقيق، وقبل أن أثور فى وجهه غاضباً سيضحك ضحكته العذبة وسيقول: سأحكى لك حكاية لطيفة. ويذوب كل شيء. آخر شارع محب على الشمال وقبل بداية محلة البرج، الشارع الذى تسكن فيه ابنته، البواب لم ينهض من مكانه: الست سافرت مصر.. لا.. وحدها..العفو.

رجعت إلى شقتى بسرعة، عدوت فوق درجات السلم، كاد قلبى يتوقف من التعب وغمرنى العرق. بعد أن دققت الجرس أكثر من مرة تنصت على باب الشقة، لعله يئن أو يستغيث، يصدمنى الصمت، همست: رفيق.. رفيق.. أنت موجود.. رفيق.

انهرت جالساً على درجة السلم، سألنى ساكن من السكان فسألته عن رفيق رد أنه لم ير عم رفيق من حوالى أسبوع، مسحت عرقي وهمهمت لنفسي: سافر. نزلت على مهل، سألت البقال والمكوجى والقهوجى وبائع الجرائد وبائع عصير القصب. رفيق لم يره أحد، فقلت: مات.. رفيق مات.

جلست على أقرب مقهى أمسح عرقي ورسخ فى ذهنى أن رفيق

هذا العجوز النحيل مات وحيدا، فبكيت. سألنى صبى المقهي: أية خدمة يا أستاذ.. شاى.. قهوة. انحنى وبص على وجهى المغمور بالعرق وعينيى المحمرتين من البكاء، وهمس: أشوف لحضرتك دكتور. استسلمت للمحطات الفضائية وصار الريموت صديقى الوحيد، وكنت قد أخذت رقم موبايل ياسمين؛ لأتصل بها كلما احتجت لشيء، وكان ا بنها الذى أخشى نظرته هو الذى يرمى لى ما أريد ويتقافز فوق درجات السلم مثل جدى..

أربعة أيام كاملة مرت ولم يظهر عن رفيق خبر، هل يمكن أن يموت دون أن أعرف؟ يمكن طبعا من يعرفنى أنا العجوز فى هذه المدينة التى ازدحمت بشكل فظيع، صرت عجوزاً والشبان فى الشوارع بصخبهم واحتجاجاتهم وجرأتهم..

خمس وأربعون سنة مرت منذ رأيت رفيق أول مرة فى المدرسة

كان نحيلاً يموت عشقا فى لعب كرة القدم وأفلام هند

حفظ قصة موت موظف لـ تشيكوف كان نحيلاً ولا

صت وخفة. أعرف، لكننى وحيد ضغطت على

صوت الولد المتشرد: ألو.. مين.. أمى

بت عليه وأنا أشعر بوخزة فى

ى لم أتناول العشاء..

اغلقت باب الشقة والشبابيك

وأضـأت المصابيح كلهـا، واختلط على أمـر الليل والنهار وقـررت أن أرتب حـيـاتـى من جديد، يمكننـى مـثـلا أن أسـافـر لابنى فى البـلاد البعيدة وألبس الجلباب الأبيض الضيق والطاقية وأرضى بالعيش فى التكييف البـارد، أو.. أتزوج.. لا يشترط السن أو الشكل وحتى لو عندها عيل مـتشرد أخـشى نظرته، لا لا.. يمكننى أن أعيد قراءة الكتب التى أحببت، لا.. فى البداية سأرتب كل ذكرياتى مع رفيق من صـور وأوراق وأضـعـهـا فى صندوق لأيامى العليلة القـادمـة. أسرعت ووضـعت صـورة تجمعنا بالحجم الكبير على المكتب، كنا على كوبرى بديع فى القناطر الخيرية وكان فى الصورة فرح يغمر الأحجار والنهر والورد الأحمر ووجه رفيق كان يبتسم مثل عجوز محنك ومثل صبى خجول، ابتسمت فقد كنت فرحا أيضا وأضمه لى بيدى اليسرى..

سمعت خبطاً على الباب، فتحته، فانسكبت شمس النهار فى عينى، زررت عينى، وبصعوبة استقبلت المشهد المضيء، شهقت، رفيق، بابتسامته العذبة، فتحت فمى ولم أتكلم، فقال وهو يرفع يديه لأعلي: سأحكى لك حكاية لطيفة.

قلب مفتوح

قال الطبيب مؤكداً:

- القسطرة .. هى التى ستحدد.

نظر لى فايز بعينين زائغتين، هو لا يعرف القسطرة، وما معنى شرايين القلب، هو طفل عجوز، يقر فى نفسه أنه سيموت فجأة بلا مرض.

جريت خلف الطبيب بسرعة وسألته، أجاب وهو فى عجلة وبلا اهتمام:

- سيحتاج عملية قلب مفتوح .. أو دعامات .. القسطرة .. القسطرة.

رجعت إلى فايز بوجهه المصفر، كان يمدد محاولاً الاسترخاء، والحبة تحت لسانه.

ابتسمت فى وجهه: كيف حالك الآن؟ مد يده وأمسك بيدى وضغط بخفة قائلاً:

- كنت سأموت يا رفيق.

عندما كلمنى على الموبايل وطلب أكلة سمك بورى لم أتردد؛ أنا أيضاً أحب السمك البورى، واشتريت الطماطم والخيار والبصل، وقام بإعداد السلطة، وكنت أقف بجوار الشواء الذى يشوى السمك، والسيدة الواقفة بجوارى ينظر لها الجميع خلسة، بينما الرجل فارع

الطـول يبحلق فيها، السيدة الواقفة بجوارى ذات جمـال معقـول فقط لا تضع على رأسها إيشارب وشعرها بالغ الجمال، فجأة دردشت معى عن الأسعـار والأخبار والثورة، ابتسمت وقالت: إننى عجوز وأفكر كالشباب، فتحت الشنطة لتخرج الفلوس ولاحظت المصحف بالداخل ومشيت، فاجأتنى نسمة هواء لطيفة.

فرشنا التربيزة بورق الجرائد ووضع الأرز والسلطة، ولما فتحت ورق الفويل الملفوف به السمك هتف فرحاً من رائحة السمك: يعيش السمك.

بعد الشاى ورؤية برنامج إخبارى كلهم يزعقون فيه باسم الديمقراطية، قال لى إنه يريد أن ينام. فتركته، وانتهزت الفرصة ورجعت فى طريقى على مهل وطعم السمك البورى ما زال فى فمى. ضبطت الشمس وهى تغرب، منظر من زمان لم أره، ظللت واقفاً فى البلكونة حتى الظلمة، جرجرت قدمى وخيرت نفسى بين شرب كوب شاى أو أنام، فارتميت على السرير بملابسى الخارجية، لا أعرف كيف نمت، لكننى نمت لأننى شخرت وأعرف ذلك من جفاف يصيب حلقى. نهضت لأخلع ملابسى وإذ بالموبايل يرن، انحنيت طالعنى رقم واسم فايز، استغربت، قلت والله لا يمكن، ظننته يريد نسهر معاً، وقلت باستخفاف: نعم يا سى فايز. فكان رد الطرف الآخر:

– إلحقنا يا أستاذ رفيق .. فايز يموت.

حطت الكلمة الغبية بكل قوة فى قلبى الواهن. أغلقت الموبايل، أخذت مفاتيح الشقة، وكنت أقفز درجات السلم أو أتدحرج عليها وقلبى

ينتفض، رميت نفسى فى التاكسى، وقف السائق الشاب وأقسم أنه لن يتركنى إلا أمام باب الشقة، الشاب يحيطنى بعينيه ويكاد أحياناً يشيلنى، فجأة وجدت باب شقة فايز مفتوحاً، ركبى سابت منى، حملنى الشاب من تحت إبطى وطلع علينا جاره المقابل، وطمأننى أن الأستاذ بخير .. لا تخف.

حين رأيته كان يشر عرقاً، مد يده، جلست بجواره، أمسكت يده لأطمئنه فهمس لي: انا أموت يا رفيق. سخرت منه وضحكت وقلت له: طول عمرك ضغطتك مرتفع حالاً سنذهب للطبيب. سألنى السائق الشاب: أية خدمة يا أستاذ؟ قلت نعم .. سنذهب لمركز القلب.. ساعدونى.

الجار والشاب كانا يسندانه، وهو يتألم من ألم مبرح فى صدره. وخلفهم كنت أنزل، وفاضت دموعى. من الكشك بصت علينا ياسمين وهبدت على صدرها.

جلست فى برودة المكان، وعلى كرسى حديد، قلبى مفطور، طبطب الجار على كتفى واستأذن.

فى شبابنا كان ضحوكاً، يقلد الممثلين من أول "جيمس دين" حتى "عادل أدهم". محمد كان معنا يدعك أنفه ويتعجب من شاب صغير لايكف عن شرب السجائر. معه كنا نصادق الشوارع والحوارى، وتحت المطر يجرنى لأراه وهو يقلد "جين كيلي" تحت المطر. لايكف عن الضحك والتعليقات، والحديث عن البنات. غفوت فرأيت أمه بوجهها الأبيض الهادئ تبتسم فى طمأنينة، فيما كنت أجهش فى البكاء.

قال الطبيب مؤكداً:

- القسطرة هى التى ستحدد.

لم أنم الليل، رغم تطمين الطبيب لى، الممرضة تشجعنى وتقول آلاف البنى آدميين يدخلون هكذا ويخرجون على أقدامهم يتقافزون درجات السلم. أعض شفتى حسرة هل سأراك مرة أخرى يا فايز ماشياً فى فرح! عرضت على ساندوتش للعشاء وشكرتها وطلبت كوب شاى.

قلت لابنتى الوحيدة إننى مع صديقى الوحيد الذى يموت، وطلبت له الرحمة على رسالة بعثتها لى. خرج الطبيب فانتفضت ملسوعاً مرعوباً. قال الطبيب وهو يمضى فى طريقه:

- انسداد ثلاثة شرايين فى القلب .. عملية قلب مفتوح.

يا سيدى . لم يسمعنى، اختفى .. كان عليّ أن أبدأ الإجراءات.

أعطانى فايز كارت البنك ورقمه السرى لأسحب منه الفلوس التى لم تف المطلوب، فسحبت بقية الفلوس من حسابى الخاص فى البنك، هاله المبلغ قلت ولا يهمك. لم يرهقنى سوى صعود درجات السلالم ونزولها من مكتب لمكتب حتى استقر فايز على سريره. فى اليوم الثانى وقبل إجراء العملية مباشرة أطلت ياسمين برأسها، لحظتها كنت أقرأ له قصيدة "لا تصالح" لأمل دنقل التى اشتاق لسماعها. تهلل وجهه وفرح جداً وسألها متأخراً عن الزيارة من أكل ومحشى وفسيخ فقالت إن جاره أخبرها بمكانه وحالته وشدد عليها بأن لا تأخذ شيئاً. جلست على الكرسى وبكت، فقلت لها: إن الموضوع بسيط جداً سوف يفتحون

صدره لإصلاح قلبه، فبكت وقالت: الأستاذ قلبه زى الفل.

سبع ساعات كانت هى الأصعب، جلست أرضاً بجوار حجرة العمليات، وحذرونى أن الوقت طويل، ونصحونى بالعودة فى المساء لأطمئن عليه، لكنه وحيد فى هذا العالم، كيف أتركه يموت وحده أو يعيش وحده. تمنيت لو أن أهل وأخوات وأقارب يتناوبون السهر والمتابعة ونحمل عن بعضنا بعض القلق والألم والخوف. ولما رحت فى سابع نومة رأيتنى أجرى معه على شاطئ بحر وكانت السيدة البيضاء تجرى معنا ويتدلى من صدرها الأنابيب الطبية الرفيعة وتمسك بيدها مقصاً طويلاً فزعت ضربت بالمقص فى بطنه انتفضت صارخاً، وحلقى جاف وكانت الساعة السابعة قد مرت، جريت خلف الطبيب الذى حفظت ملامحه فقال باقتضاب: الحمد لله .. فى العناية المركزة.

الطبيب: من سيخدمه؟ قلت أنا. فعلمنى كيف أمسد جرح صدره الطولى بالمطهر وكيف أمسح جرح ساقه اليمنى وساقه اليسرى. وقمت معه بالتدريب الأول: المشى. المشى يومياً. قال فايز ضاحكاً: سأقوم بعملية تليين للقلب. ولا يتوقف عن تقليد عبدالحليم حافظ وهو يردد "وتقولى بكره قلبك حيعطف".

كان يغفو أحياناً، وكنت جالساً على الكرسى بجواره أشاهد التليفزيون على قناة وحيدة تبث أفلام رسوم متحركة للأطفال. أبتسم أحياناً.

فى الليلة الأولى كان فى إعياء. قلت له نم، لم يستطع. كان يغفو

أحياناً، تمتم: الأحلام أوسع من الغابة. ضغط على شفته السفلى بخفة وقال: يا رفيق .. علقت قلبك على فرع شجرة وأرحت بالك. اندهشت. أردف: لكننى جريت فى المدن واغوتنى العمارة والكبارى والأتوبيسات المزدحمة والنساء فى أشكالهن المختلفة ورغم ذلك طاردنى الوعل كثيراً قادماً من غابات لا أحلم بها.

ربت على كتفه لينام، أسند رأسه للوسادة، وقال: لو مت امض بى على الكورنيش، أحب النيل حين يخطفنى من زحمة الحياة، ثم امض بى حتى مدفن عائلتنا واقرأ على روحى الفاتحة وابك كما تشاء ولما ترجع انسنى. وراح فى رحلة النوم حتى الصباح، فى الليل لسعة برد، على السرير المجاور انكمشت، ولم أفكر فى موته، بل كنت أفكر فى وحدتى بعد موته. وانتفضت هلعاً حين سمعته يتمتم: مات أولادنا فى زماننا.. لم يبق سوانا يا رفيق.

فى الصباح جاء العامل وطهر الحجرة، وجاء الطبيب والممرضة، ومشيت به أسبوعاً فى طرقات المستشفى وصدره مضموم بحزام أبيض عريض. حتى خرجنا ودخلنا الشارع الصغير الضيق بالتاكسى، هرولت وراءنا ياسمين، وقبل أن ننزل بالتاكسى كان جاره يرحب بنا فى فرح، لما نام لاحظت أنه فقد نصف وزنه، ونحف وجهه فتهدلت وجنتاه، طبطبت عليه وابتسمت. دخلت الحمام وخلعت ملابسى وفتحت الدش لينعم بالماء البارد.

آخر مرة رأيت «رفيق»

وضعت كوب الشاى على إفريز البلكونة، كنت قرفان، وقفت أطل على الشارع الضيق، زيكو ابن ياسمين يخبط الكرة الجلد فى الجدار المقابل بلا توقف، وأمه تطل من شباك الكشك والموبايل على أذنها وبعد كل خبطة كرة تضحك ضحكة عالية، انتهت ظاهرة السيدات والفتيات اللائى يقفن فى الشرفات، سادت ثقافة غلق الشبابيك وأبواب البلكونات، تزعق زوجتى من الداخل: الذباب ملأ الشقة، لكننى أحب الجلوس فى البلكونة ويشغلنى هذه الأيام جارى فايز. لم أعد أراه إلا نادراً. مرة كان متكوماً على نفسه فى حضن الكرسى، ظللت أراقبه لوقت طويل حتى حرك ذراعه ووضعها على الإفريز، ومرة نسى الشباك الذى يطل على الصالة مفتوحاً وتسنى لى أن أراه نائماً على مكتبه كأنه فى غيبوبة، يومها أخذت أنادى بصوت عال: ياأستاذ فايز. انتهت زوجتى إلى أن جننت، لكن بعد ساعات لاحظت أنه أضاء مصابيح الصالة، حط فى يقينى أنه سيموت وعلىّ مراقبته، نحن لسنا أصدقاء، حاولت التقرب إليه لكنه كان يعاملنى كأنه بطل الفيلم وأنا كومبارس، فى هذه الأيام الأخيرة يشعرنى بالأسى أننى أسمعه أكثر من مرة يبكى بصوت مرتفع ويشهق ثم يسكت تماماً. ظللت أتابع حياته بالمصابيح التى تضاء وتطفأ، وأترقبه حتى أراه بعد أيام وهو يدلى "السبت" من الطابق الرابع، يمسك بالحبل الرفيع ويجد صعوبة بالغة فى تفادى كل

حبال الغسيل حتى يصل السبت إلى يدى ياسمين التى تضع بحرص بعض الأكياس البيضاء الصغيرة، ذات مرة لم يستطع فايز أن يشد السبت فصعدت ياسمين ونزلت بعد نصف ساعة، لما لمحت لها بالكلام وأنا أشترى علبة سجائر أدمعت ومسحت أنفها فى طرف الإيشارب وقالت: إن حاله عدم ومريض ويسألها دائماً "ألم يأتى رفيق للشارع"، وتقول ياسمين وهى لا تكف عن البكاء كل مرة يهمس "شوف لى رفيق"، أشعلتُ سيجارة واستغربت، فى مرة أخيرة قالت: إنها عندما دخلت شقة الأستاذ فايز وجدت الموبايل مبعثراً على الأرض، وحين حاولت لمه صرخ فايز: اتركيه .. موبايل ابن كلب لا يجد رفيق". فعلاً .. رفيق .. رفيق .. هذا العجوز لم أره ربما من شهور. كان العجوزان فى حالة بهجة دائمة، ورفيق يملأ الشارع بضحكته العالية المجلجلة، التى كانت تستفز زوجتى أحياناً، هذا العجوز أين اختفى؟ الأستاذ رفيق كان لا يلبس البدلة، فى الشتاء يرتدى الجاكت الشيك وتحت إبطه المجلات والكتب والجرائد، وفى يده شنطة الخضار، وعندما يراه الواقف فى الطابق الرابع يتمايل كراقص فى سرور، ويوم البطيخة كان مشهوداً، التف الرجال والسيدات والعيال حول رفيق الذى جلس أرضاً على عتبة البوابة ووضع البطيخة أمامه، وبعد شجار كوميدى مع فايز، كنت فى مكانى بالبلكونة، وفايز يضحك ويضرب كفا بكف، قال لي: شايف .. جاء بالبطيخة ويرفض الصعود بها. ورفيق يقول للمتحلقين حوله: لا أستطيع الصعود للطابق الرابع بالبطيخة. يضحك رفيق ضحكته المجلجلة وينفى بإصبعه: لن أصعد. وحين تدخل شاب بكلية الطب وتطوع

أن يطلع بالبطيخة فوق، رفض رفيق، وأصر، وقال: ينزل .. تعبت من البطيخة.. ينزل. وحين نزل فايز كان بيده سكينه، خطفها الولد زيكو ورشقها فى بطن البطيخة وقطعها، وتم توزيعها على المتحلقين، حتى الشاب بالطب كان سعيداً وهو ينحت القشرة، والعيال يملؤون أفواههم بالبذر ويطلقونه على بعضهم، وضحك الجميع، حتى رأيت رفيق بعد منتصف الليل جالساً يشرب الشاى فى بلكونة فايز وكان يشغل راديو الموبايل الذى سمعته واضحا وفيروز تغنى "جايب لى سلام .. عصفور الجناين".

آخر مرة رأيت رفيق كان من شهور، فى وقت الأصيل خرج من البوابة، برجله عرج خفيف، مشى بضعة أمتار ثم توقف ونظر لأعلى، للطابق الرابع، لحظتها نظرتُ للطابق الرابع حيث يقف فايز، عيناه مشدودتان لرفيقه، لم يبتسم، لكن به لهفة، رفع يده بثقل ولوح لرفيق وكان لايزال رافعاً رأسه لأعلى، ورفع يده لوح له كثيراً. هذا المشهد لم يكن مشهداً معتاداً فى توديع أحدهما للآخر، زمان كنت أرى رفيق يخرج من البوابة بخفة طائر، يتقافز ما بين الحفر الصغيرة أو بين الماء المسكوب، ولم يكن رفيق ينظر لأعلى ليودع صديقه ولم يكن فايز يرقبه من البلكونة، ذات مرة قابلت رفيق فى الشارع، سلمت عليه، انحنى وسلم بأدب كأننا أصدقاء، أكثر من مرة تلعثم فى اسمى، لكننى أحب العجوزين وأحب مداعبتهما، بعد أن سلم عليّ، سألته بعشم: كيف حال الأستاذ فايز. أجابنى وضحكته تسبق كلامه: زى القرد . لكن.. فى ذلك اليوم الأخير ظل فايز يطل على رفيقه بأسى، لا أعرف كيف شعرت بهذا الأسى، ابتسم رفيق ومشى ببطء، انسحب فايز لداخل

الشقة فى بطء أيضاً، وحين اختفى فايز، وقف رفيق تماماً فى منتصف الشارع الضيق قبل كشك ياسمين، وأخذ يطل على بلكونة فايز، أخرج منديله القماش ومسح به جبهته مراراً، أطل كثيراً، رفع النظارة عن عينيه ومسحها فى طرف المنديل ثم وضعها على عينيه، وأطل طويلاً، تردد، ثم مشى بعرج ملحوظ، وتهدل فى كتفيه، وقف على ناصية الشارع لحظات ثم اختفى.

العجوزان

١- أول مرة رأيت "فايز"

٢- رفيق عمره

٣- صياد المحبة

٤- ميكروباص

٥- غرقى

٦- ساعة الشركة

٧- صورة للسيدة العجوز

٨- ٢٥ يناير - ١١فبراير

٩- أحلام ياسمين

١٠- زيارة متأخرة

١١- ذراق

١٢- ولا عزاء

١٣- قد يكون مغلقاً

١٤- قلب مفتوح

١٥- آخر مرة رأيت "رفيق"

سلسلة كتاب الهلال تقدم:

أصوات وقضايا من الشعر الحديث

أحمد حسين الطماوي

يصدر ٥ مارس ٢٠١٦

«حين فشلت في إشعال سيجارة من الولاعة اقتربت مني ومنعت الهواء، وتحسست أصابعي صدرها المترهل، وما أن رجعنا حتى سبقتها ودخلت البيت وأنا أعرف أنك تتابعني وسيأكلك الفضول، فقد رأيتك وأنت تدخل كشك الموسيقى وأنا و«ياسمين» نتضاحك تحت ساعة الشركة»

رواية قفزة، وكاتب نافذ كرأس سهم!

لا يكتفي جار النبي الحلو بما يقع له من الوقائع المكنوزة بالدلالات والرؤى، ولا يقنع بما روّضهُ من حيل السرد وتفانينه المدهشة، ولا حتى بخياره الأصيل، في أن تكون القراءة ممتعة وشائقة ومتبصرة. لا يقنع بهذا كله؛ لقد جعلته الكتابة يغوص عميقا في عالمه الخاص، ويستمع طويلا إلى أناس متباينين في هذا العالم، فأصبح يصوغ شخصياته من الدم واللحم لا من الورق والحبر. جعلته الكتابة ساحرا يستنهض مدنا من النسيان، وها هو يقفز بروايته «العجوزان» إلى أفق آخر من السحر والعذوبة، إذ يقدم في روايته «تبصرا نفسيا» مدهشا لأخلاط من البشر، عبر ديالوج سردي. من نوع جديد. بين عجوزين يلدان العالم ويراقبنه في آن!

جار النبي الحلو:

كاتب مصري، ولد عام ١٩٤٧ في مدينة المحلة الكبرى، له أكثر من عشر مجموعات قصصية للكبار والصغار. كتب عن مدينته رباعية روائية؛ "حلم على نهر"، "حجرة فوق سطح"، "قمر الشتاء"، "عطر قديم". وحظي بتكريمات ونال جوائز في مصر والعالم العربي.

المؤلف